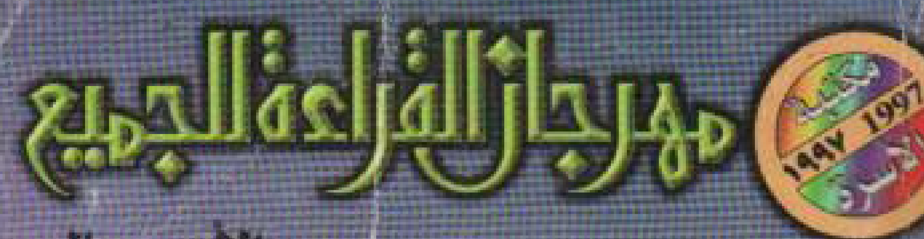
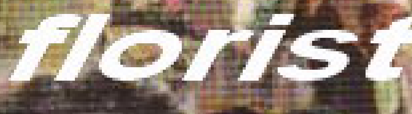


الأعمال الإبداعية

ابراهيم عيسى

صار بعيداً







الهيئة المصرية العامة للكتاب

صار بعيدا

إبراهيم عيسى



مهرجان القراءة للجميع ٩٧

مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(الأعمال الإبداعية)

صار بعيداً

إبراهيم عيسى

لوحة الغلاف:
للفنان: جمال قطب

تصميم الغلاف
الإشراف الفني:
للفنان محمود الهندي

المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب



مقدمة

وهكذا تمضى مسيرة مكتبة الأسرة لتقدم فى عامها الرابع تسع سلاسل جديدة تضم روائع الفكر والإبداع من عيون كتب الآداب والفنون والفكر فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية، تروى تعطش الجماهير للثقافة الجادة والرفيعة، وتنضم إلى مجموعة العناوين التى صدرت خلال الأعوام الثلاث الماضية لتغطى مساحة عريضة من بحور المعرفة الإنسانية، ولتقطع بأن مصر غنية بتراثها الأدبى والفكرى والإبداعى والعلمى، وأن مصر على مر التاريخ هى بلاد الحكمة والمعرفة والفن والحضارة .. عبقرية فى المكان وعبقرية الإبداع فى كل زمان.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم...

مكتبة الأسرة ٩٧ رسالة إلى شباب مصر الواعد تقدم صفحات متألقة من متعة الإبداع ونور المعرفة مصدر القوة فى عالم اليوم..

صفحات تكشف عن ماضينا العريق وحاضرنا الواعد وتستشرف مستقبلنا المشرق.

د. سمير سرحان

قول للغريب
حضنك هنا
دربك قريب
من دربنا
بيتك هنا
أهلك هنا
حزن البشر
دا حزننا
... ...
... ...
بكرة القلوب تفتح لنا

• عبد الرحيم منصور •



السفر

الليلة نفسها والسفر ذاته

هبط أبى من السرير إلى السجادة المفروشة على أرض غرفة النوم ..
كانت الفوضى مسيطرة على لجام الأشياء المبعثرة ..

الحقيبة بنية اللون مفتوحة الجوف تتدلى منها الأحزمة المنتهية بحلقات من المعدن وأسم أبى مكتوباً بخطه المنسق الجميل متضخم الحجم ، أسمه وعنوان منزلنا وجمهورية مصر العربية حيث يحرص دائماً على التعامل مع الوطن تعاملاً أميناً دقيقاً مخلصاً حتى فى فرد أسمه الثلاثى على بطاقات الحقائب وأظرف الخطابات وحواره عن الخلافات السياسية بين الاقطار الشقيقة ، . الحقيبة تتسع الآن لكفه يمسك بلفافه محبوكة الغلق ، يضعها بأصابعه الخمرية المشوبة بحمرة خجلى وبنية رقيقة ، ثم يرفع اللفافة مرة أخرى مسرعاً وهو يزفر فى حدة جلسته المتعبة ، أفترش فيها وسادة مستديرة غير محكمة الغطاء الأبيض الذى تكرمش تحتها ، يعلن تذمره من كل هذه الحاجات واللفائف التى أودعها عنده أهل رفاقه فى الغربة ـ المدرسة والمدينة والسكن ـ حتى يوصلها إليهم هناك ، كليوات من الشيكولاته وأخرى من الجبن وغضب جداً من علبة مسل

بلدى إلى زميل شاب فى مدرسته وضرب كفه على فخذه مذهولاً من سخف الموقف وضيق الأفق ويخاطب أمى فى زهق - تصورى .. يرسلون معى كيلو مغات وثمرتين من اللوف .

أمى التى تيمنت أبى وجلست تصفها على الأرض العارية (تتجاهل الإحساس بالبرودة تماماً) ونصفها على السجادة ترفع كفيها للسماء وهى تنتهد بحرارة فيها من التعب والغربة وألم الفراق مافيها .

- ألم أقل لك أرفض .. هل فرضوا عليك أن تأخذ هذه الأشياء معك؟.. أنت تريد مجاملة الناس وتتحمل ما يحدث .. هى عادتك أم ستشتريها !

ملامح أبى تتخذ طريقاً مستقيماً للسكون والهدوء ويبتسم ويقترب برأسه حتى كتف أمى ويضع كفه على ظهرها أسفل عنقها بدقة ويمسح حجاب شعرها الشفاف الذى لم تضعه جانباً بعد انتهاء صلاتها ولملمة سجادة الصلاة على حافة السرير .

- أهو ، نحن نعمل الخير وربنا يضع لنا دائماً أولاد الحلال فى طريقنا .

تؤكد أمى حروفها .

- هذا ما نأخذه كل سنة .

الحاجات كلها متناثرة على الأرض بجوار السرير تحت قوائم الصوان، أسفل التسريحة ملتصقة بالبوفية ، العلب الكرتونية ، اللفائف ،

أكياس ورقية ، أكياس بلاستيك محشوة ملابس مطوية بعناية يعيد أبى بعضها إلى الحقيبة ، ثم يرفعها مرة أخرى حين تسد أحلام استيعاب الحقيبة لكل هذه الحاجيات ، كان أبى مصراً على التعامل مع حقيبة واحدة حتى لايشغل نفسه فى الرحلة بالحمولة الثقيلة وتعدد الحقائب واللهث وراء الوزن والتفتيش والبحث عن سيارة من المطار ثم إن أبى رجل دقيق حتى الوسوسة من تأخره عن موعد الطائرة (أو القطار حتى) قلق على الدوام من إمكانية العثور السهل على سيارة أجرة ، متوجس من تساهل موظفى المطارات أمام حقيبته ولهذا فهو دون أن يدرك أو ندرك - يراجع جميع أوراقه ومستنداته عشر مرات قبل السفر وعشرات المرات فى انتقاله نحو المطار ، يفتح الحقيبة الصغيرة المخصصة لأوراقه ، وكأنه لن يجدها يفتش عنها كأنه لم يرها منذ دقائق ، يطمئن على تمام أحواله وإستكمال أوراقه حتى يجد نفسه أمام منفذ استطلاع الورق ونافذة ختم المستندات وبوابة العبور إلى الطائرة ، لم أركب معه الطائرة ، إلا إننى أظن أنه يعيد التمام عليها خشية الفقد بعد الركوب وقبل الهبوط وحين تقديمها .

يملأ أبى الحقيبة بكل الأشياء ، يعبئها بحرص ودأب ويحشرها فى استنفار لكل المساحات وعداء للفراغ مؤكد ثم يسحب الحزام من جانبى الحقيبة الداخلين ويشدها بعزم ويشبك الحلقتين للأحكام ، يغطى الحقيبة ويمسك بالحزامين الخارجين ويجذبهما فى قوة حتى يتأكد من تماس الأطراف بالأطراف ، ينتهى من اغلاق الحقيبة فينهض على

ركبتيه ثم على قدميه فتسقط صحيفة الأهرام التى كانت مستندة على فخذه منذ ساعتها على الأرض فيلتقطها حتى لاتضيع بين قدميه والحقيبة ، ويضعها على حافة السرير ، ويمسك الحقيبة بأصابعه من مقبضها الغليظ المبطن بالمعدن والمغطى بطبقات من الجلد المتين وتبدأ أصابعه التى اشتد إحمرارها وثنيات المقبض على أنامله تبدأ فى استشعار وزنها وثقلها ، ثم يصرح لصراخه بالانطلاق المنضبط .

- يا خبر اسود .. ستزن أربعين كيلو .

تفزع أمى بحسم قاطع .

- خلاص كما قلت لك .. رجع الحاجات لأصحابها (وصول الحاجات لأصحابها مقدس لايجب مساسه عند أبى فيهتف) .

- طيب إسكتى والنبى لاداعى لإفساد الثواب بالكلام .

آه .. ممدودة وموزونة وموجوعة وحارة ومشروخة ومصابة بالخيبة جداً .

- الحقوا انخلعت يد الحقيبة .. هل تنقصنا هذه المشاكل ؟

نقوش تقليدية رصينة تزين أبواب «الصوان» الشامخ منذ ثلاثين عاماً حين وقف أمامه أبى ، كان الضوء الواصل إلى رسوم الصلف نحيلاً وخابياً ، وورود وزهور بألوان بنفسجية فيها خلود الفراعنة دون الفناء وخضار فى ورق يخرج من أغصان ملتوية متشابكة تتمدد على مساحة من الخشب المطلى بإحساس كاكى وخلفية طحينية مخبأة فى

الزمن ، هذا الصوان يفخر به أبى دائماً ، حين دخلت معه ذات مرة إلى منزل اختفت أية صلة له بدماغى فيما عدا أشجار سلبية الأوراق وعتمة بغبشة غروب متواطىء مع الليل القادم ، ونور مضعضع قادم من ردهة تنهى صعود السلالم الضيقة ، ومازال وجه الرجل ضخم الهيكل بملامح مختفية فى ثنايا ماض بعيد مرتبك فى حواف عقلى ، أكد أبى على أنه فنان عظيم وصانع ماهر ، كنا الآن فى باحة ممتدة فسيحة فيها ألواح وقواطع من أنواع متعددة من خشب خام ورؤوس مساند أسرة وأبواب صوان معدة للتركيب ونشارة خشب تكتظ بها الجوانب .

كان الرجل ذى صلة دم وقربى وكان صاحب الصوان نفسه الذى تردد فى مناسبات شتى التذكير بالرحمة عليه والدعاء له من أبى فى معرض الفخر بخلود الصوان وصموده أمام عتو الدهر الذى جعل من الصوان الجديد لغرفتنا تحفة فى الانخلاع والتفكك الدورى كلما عنّ لأخواتى أن يُنفسن عن غضبهن بدفعة أو بعنف فتحه ، فتتساقط الأصلفة والمسامير تتفكك يصعد أبى فوق مقعد خشبى وتهبط كفاه من سطح الصوان بحقيبة كبيرة رصاصية اللون جلبها منذ عام حجه مع أمى.

- ياه هل تذكرين يوم اشتريناها من المحل فى المدينة المنورة والله تحملت وواضح متانة صناعتها وليست مثل الحقيبة الأخرى المزيلة .. أليس كذلك يا حاجة الجملة الأخيرة على بخار حب وتدليل ورغم أن أمى حجت مع أبى منذ ثلاثة أعوام إلا أن أحداً منا أو من أخوالى أو

جيراننا لا يناديها - ربما لصغر سنها - يا حاجة فيما عدا أبى الذى يصر على ندائها والكلام معها وعنها مستخدماً اللقب ، الأمر الذى يجعلنا أحياناً نستفسر منه عمن يقصد بالحاجة فيندهش غرابة السؤال وتوهة العقل وفقدان التركيز .. ، الحاجة .. وبعدين ! فنعرف .

كانت ليلة سفرهما إلى الحجاز أجمل لحظات حياتها على وجه الإطلاق ، الفرح الطهور والبسمة المبرأة والعيون المزغردة ورداؤها الأبيض الناصع الذى ذهبا لأجله إلى المحلة الكبرى فاشتريا ملابس الإحرام جلاليب بيضاء ورداءات أمى الناصعة وكانت حريصة على تقليب الملابس ودعوة الأخوة والأقارب إلى مشاهدة الثياب وجربا الملابس فى تأهب وإستعداد قبيل السفر ، وكان أبى بشوشاً ، أكثر من عادته ، طلوقاً بالبهجة يربت الكتف ويداعب الأطفال ويخفف التوترات ويحنو على الغاضب ويستمهل المتعجل ويغرى الزاهد للإلتحام فى الفرح ويعرب عن بلاغة آية قرآنية حين تمس أذنه يعزف عن متابعة الحلقات التليفزيونية ويكرس الوقت كله لقراءة وتلاوة القرآن فى مصحفه البنى الصغير (استبدل له بعد العودة من الحج بمصحف يوزعونه على الحجاج هناك) ومداعبة أمى ، زاد فرحه واندثر همه وذاب كربه حين تمكن أخيراً من مصاحبتها له فى الحج بعد عراقيل عدة نغصت همته وعثرت فرحه حتى الأيام الأخيرة للسفر ، حيث ذهبنا معاً إلى شركة الطيران مستهدياً بخبرتى فى شوارع وسط المدينة لكننى تهت معه ثم وجدنا المقر فدخلناه فاستبشر بأناقة المكان وحسن نظامه ولكنه - لما وقف أمام موظفة الشركة

- استوحش التعامل الرسمى وبرودة الموظفة التى لم تدرك عن حلم حجه ومصاحبة زوجته شيئاً فأمسكت جواز سفره والتذاكر فى ثلجية لزجة ورأيت لحظتها دموعاً تحفر شارعها فى عيون أبى والتهام دعاءات متهدجة لله أن يتم الأمر ويزيل العقبة لتأشيرات الدخول وزحام الحج وإستبدال التذاكر وعقد لم نعد - تحديداً - نتذكرها ، وحين وقفنا فى المطار نودعهما كل العائلة أنا وأخوتى الأربعة وقفنا فى صف مستقيم وأكتافنا فى الأكتاف مع إختلاف الطول والقصر وكان أبى وأمى فى ثيابهما البيض وفرحتهما اللامعة ونورانية فذة تكسو ملامح المكان بأسره ونلوح لهما بالأصابع وللمرة الأولى فى سلسلة طولها سبعون ذراعاً من أحزان الوداع وسلامات الفرقة وأحضان الغربة والمسافات الفاصلة بيننا وبين أبى حين يتمم اجراءاته ويدخل إلى مالا نستطيع الدخول معه إليه ، لأول مرة أراه يضحك ويبتسم جداً فى موقف كهذا متأبطة ذراعه أمى ونحن ضاحكين باسمين تدرك ببساطة تعجز عن البيان أن الله سيغفر لهما بمجرد أن تطأ الأقدام حدود مكة .

وعدنا بالإحساس ذاته إلى المنزل حيث كانت الأسرة الكبيرة الجدة والعمة والخالات والخلان والأطفال يسعون فى أرجاء المنزل الواسع فى ألق وبشر .

ها هى عمتى تدخل فى تؤده يفرضها عشرون نوعاً من الأدوية ، تتعاطاها لعلاج أمراض متكاثرة يمكن حصرها بفرز علب الأدوية من كيس بلاستيكى محشو بها تخرج معها أينما كانت ، نفس حال جدتى

التى لا تترك الكيس أبداً وتدرك فى ذكاء مواقيت كل دواء ولونه وشكل حروفه الإنجليزية والرسم الخاص بالشركة المنتجة وتطورات سعره وموضع ندرته فى السوق من وفرته ، كلتاهما بوزن ثقيل ومرض أثقل وخطو وئيد وحزن مصفى وتحليق فى فراغ ودموع فى مآقى ورعشة فى صوت ودعاء فى غزارة وتربع على أريكة أو راحة على سجادة تنتظران والذى حتى يخرج ببدلته الكاملة وحقيبته السوداء قبل الركوب فى السيارة والسفر إلى المطار .

رغم الضجيج الحادث من تدافع الأطفال نحو جدة وعمة (هى جدة لآخرين بدورها) إلا أن رائحة الإكتئاب تحلق فى سماء المنزل الفسيح فسحة نهر ينتظر إيزيس أو صياد مؤمن بأهمية النيل ، الإكتئاب واسع مستشرى فى أجواء المكان ، يركض بين القلوب والجوانح ، يدفس رأسه فى الحنايا وينحشر فى العيون ، شىء يسحب الهواء من الأمكنة ويطلق غازاً خفياً عصياً يمرر ذراته فى الأنوف والآذان والأنامل والشفاه العليا للصامتين ، السفلى للمتكلمين ، فيبدو البيت الذى لا يتوقف عن الزعيق والصراخ والمناقشات والحكايات وسرد الوقائع وتنظير المشاكل الصغيرة ، يبدو فى غمرة الاكتئاب محزوناً خالياً على ناسه منسياً فى عناوين الفرح ، أنهكته القبل القادمة مع أصدقاء أبى يتحاورون فى غرفة استقبال يستأذنون فيقبلون الوجنات ويحضنون الصدر ويتمنون لأبى سفراً موفقاً وعوداً حميداً واختصاراً لشقاء الغربة وإستكمالاً لغاية الاغتراب يودعهم أبى وتخلو الغرفة إلا من أثاثها وأمى مستندة على

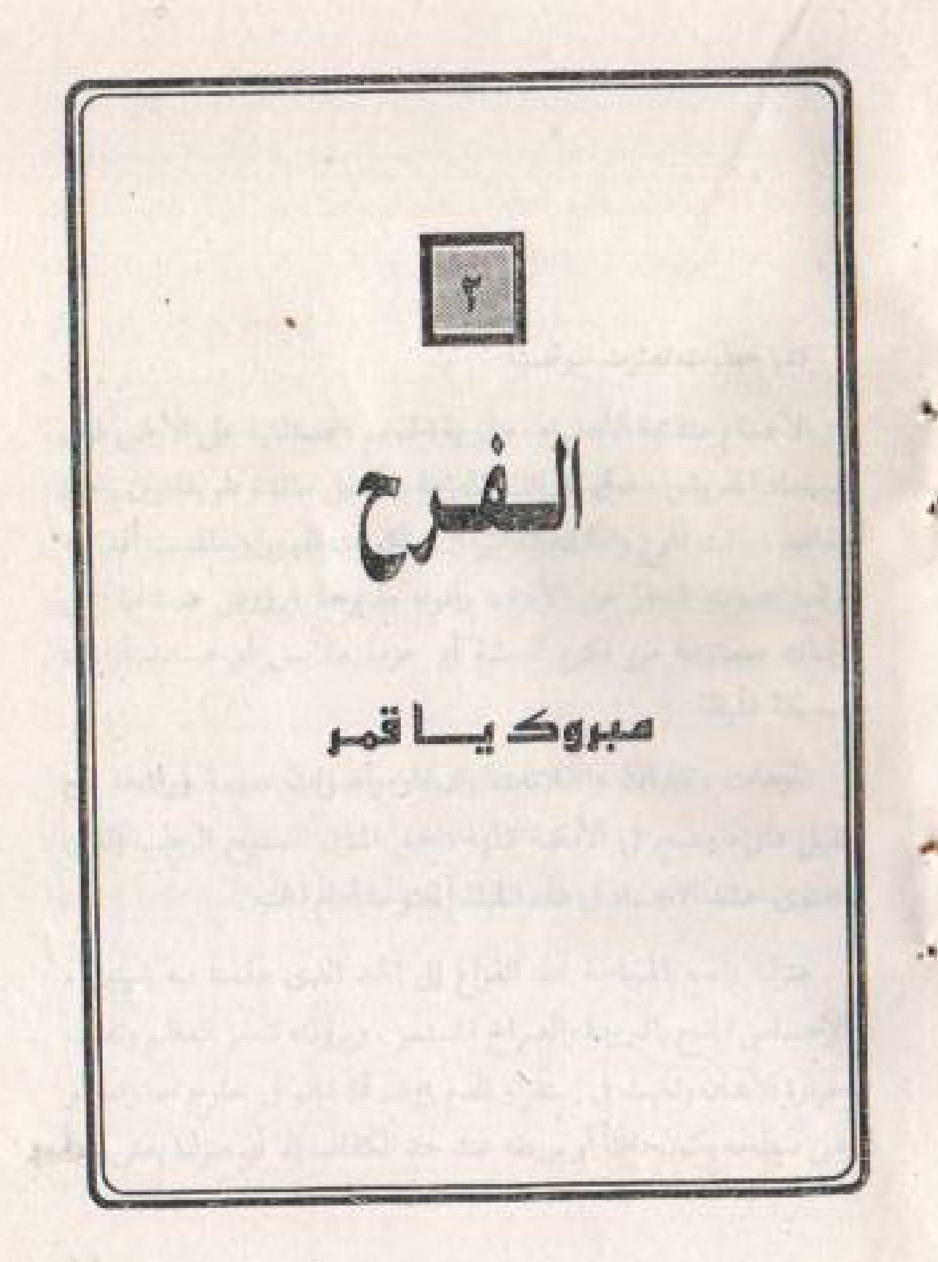
تليفزيون قديم من طراز يجعله تحفة خيالية لا شىء فيه إلا الخيال يضغط أبى على زر الكهرباء فتنطفىء نصف مصابيح الثريا ثم ينتبه فيعود ليضغط على الزر الآخر فتنطفىء الأنوار ويغلق الباب .

فى الصالة غالباً يستقبل المودعين من عائلات الأنساب زوج أختى وخطيب الأخرى مصطحبين بقية أفراد عائلة كل منهما ، بطيبتهم وعذوبة أخلاقهم ووداعة لقياهم ووداعهم ويندمج البيت فى إستقبال الأقارب القادمين من البلدة بجلاليب مختلفة ألوانها ولكن الأكف خشنة كلها سمراء مندفعة والعناق من هناك حار حاد .

ومنذ اشترى ابن عمتى (والذى رباه أبى منذ صغره فى منزله فنشأ أخاً أكبر لنا جميعاً وابنا أكبر له) منذ اشترى سيارته وهو يتولى مهمة إصطحابنا لإستقبال أبى من المطار ووداعه وكان قبلها ، معنا ، نذهب للاتفاق مع سائق سيارة أجرة تسع سبعة ركاب ونؤكد على الموعد ونركب مع أبى أنا وأمى وأخى الصغير وابن عمتنا وبعض أقاربنا ثم تناقصت الأعداد مع طول المدة وتكرار الرحلة حتى لم يعد سوى أنا وأمى وأخى وابن عمتنا وكان السفر الليلى أسوأ ما أعرفه عن الغربة حين كان المطر غير رحيم يعصف با لمدينة والليل ظليم شرس والوحشة تتفجر فى كل متر تعبره السيارة نحو طريق رملى تدلف منه إلى ساحة صغيرة فيها منزل رفيق لأبى فى أول سفر لهما ، وكنا فرحنا بوجود صاحب فى مشقة وتعاسة الرحلة الجوية الأولى للغربة لذا اتفقنا على السفر معاً من المدينة للمطار وكان المطر ثالث اثنين فى رحلتهما ، انتظرنا الرجل حتى

هبوطه إلينا بحقيبته والمطر يغزل حزننا وإنهار الدموع من المآقى واستقرار لفراغ هادر فى صدورنا ونظرات تائهة وتمتمات شائهة . والزجاج محكم الغلق والليل محكم الظلمة والضوء الذى يرسله مصباح السيارة ملقى على الطريق يكشف فقط متراً أو مثله أمام بيت الرجل الذى بدا الآن مع زوجته تحت مظلة تحملها له وحقيبته بين كفيه وأمام ساقيه تشتركان فى دفعها لثقلها خلف السيارة يرفع السائق معه الحقيبة فنسمع من الباب الخلفى لحقيبة السيارة المفتوحة طلقات المطر تضرب فى الأرض وهمهمات الزوجة المودعة وظل الحزن أمام شعاع ضوء السيارة .

انتهى أبى من تعبئة الحقيبة ثم قام لإختبارها ثم لم يطمئن إلا عندما جرب أن يزنها على ميزان للبشر جلبه من سفر سابق له وعندما خرج من الغرفة كان كل شىء مؤهلاً للتكرار ، ليلة السفر ، الليلة نفسها والسفر ذاته .



كلما خطوت تعثرت فتوقفت

الأجسام مندمجة الأعضاء ، مطوية الحجم ، مستلقية على الأرض فوق السجاد المفروش ، فوق الأرائك الموزعة ، أسفل مائدة طويلة بين زحام مقاعد ، بانت أذرع وانكشفت سيقان ، تكورت ظهور وتقلصت أقدام ، ارتفع صوت شخر من الأنوف وأفواه مفتوحة ورؤوس مستندة على وسائد مصنوعة من تكوم أقمشة أو حزمة ملابس أو مساند أرائك سميكة غليظة .

تأوهات وتقلبات وانفلاتات وشخار وأصوات مبهمة ورائحة نوم ثقيل دافىء يسبح فى الأمكنة كلها داخل المنزل الفسيح الرحب الذى احتوى حشد الأجساد فى هذه الليلة المفتوحة أمام الحنين .

منزلنا واسع المساحة ممتد الفراغ إلى الحد الذى علمنا فيه شيئين ، الإحساس الملح بالبرودة والصراخ المستمر ، وبرودته تنخر العظم وتفتت حرارة الأبدان وتعبث فى إستقرار الدم ورغم أن الجو فى خارج جدرانه أو على سطحه يكون دافئاً أو برودته عند حد الكفاف إلا أن منزلنا يعنى برداً

حقيقياً وغوراً عميقاً فى البدن بريح وهمية فتتحول جميعاً إلى أكف أمام دفاية ترسل ضوءاً أحمر مشعاً بحرارة علها تبدد ما يمكن أن تبدده من وجع البرودة ، أو أخوة ملفوفين فى أغطية ولعن دؤوب للبرد واختراعات متجددة لجلب الدفء . أما الصراخ المستمر ربما يأتى من بعد المسافة بين غرفة وأخرى تستلزم صراخاً على شقيق أصغر أن يأتى فلا يسمع فنكرر فلا يسمع فنصرخ ، ذلك أن المشى حتى مكانه يضيع وقتاً ويذهب الحاجة فناء ، أو الأم تنادى ابنتها فى المطبخ فتهتف عليها ولاتجيب ثم تطور الصراخ من عصبية وتوتر إلى طبع مستأسد فى الكيان وزعيق عادى فتنادى بعضاً بالصراخ ونضحك مع بعض بالزعيق ونعاتب أنفسنا بالهتاف ونحكى قصصنا بالصوت العالى ونتشاجر قطعاً بالصراخ .

وقد أصابت العدوى كل أجهزة البيت فالثلاجة ذات صوت موتور غليظ يقطع أية محاولة للهدوء والغسالة آلة حادة لها هدير مدو يعصف بالسكون يلقينا بالصداع فى اليوم المخصص للغسيل ، والتليفزيون لايكف أبداً عن صوته المرتفع حتى أصوات تغاريد العصافير المزدحمة فوق أغصان أشجار حديقتنا تتشابك فى صوت واحد يكفى لتحويل تغريدها إلى نحيب أو شجار خراق .

لكن كل هذا الصراخ الطبيعى المعتاد كان خافتاً هشاً مع وفود عشرات الأقارب والأحبة فى هذه الليلة ، ليلة فرح الأخت الكبيرة التى دفعت العمر كله للتكاتف فى المائة والسبعين متراً مساحة منزلنا ، فى كل

قطعة فراغ هنا بعض من الأهل وقدوم من الماضى وإشراق من أفق بعيد وإقتراب لبعاد ودنو لمرتحل كما يصير البرد منفياً تماماً مع أنفاس الناس والذكريات وملامح الوجوه المحملة بالحب المفروشة بالأمانى الملونة بالصدق الشفيف لايحجب الحقيقة ولايخفيها .

كلما خطوت تعثرت فى ساق ممدودة من أسفل أريكة أو كف مفرودة فوق مقعد أو جسد متقلب يحوى داخله جسداً صغيراً لطفل يغطس فى أحلامه ، تتحاشى قدمى الضغط على جسد أو دوس طرف فأتحسس بنظرى الضعيف مساحة فراغ أو مسافة فاصلة بين جسدين ، أمر عابراً الصالة التى كسيت بالأغطية والمفارش والأجساد المبعثرة والأصوات الناعسة وفواح الدفء ، من غرفة الجلوس تبدو أجساد أخرى تنام على السجادة ملتحفة بغطاء خفيف لايكفى احتواء الأطراف كلها (على قصرها) وفوق الأريكة ينام عضو هام فى عائلة تتوسد الأرض ، وفى غرفتى عدد من شباب القادمين ، ينامون متقابلين على السرير حتى يتسع لهم وقد وضعت ملابسهم المزنقة خصيصاً ولفائفهم فوق المكتب وعلى المقاعد وظهروا جميعاً بملابس نوم لى ولأبى فطالت على واحد وقصرت على كثيرين وبانت طرافتها عليهم جميعاً وهم يخوضون نوماً متعباً من السفر أما الغرفة الكبيرة لأخواتى فقد إمتلأت عن آخرها بهن وسيدات العائلة وقد نمن متأخراً جداً بعد ثرثرة تنازعت شفاههن نزعاً طويلاً من الليل ، حكين فيها من فوق الأسرة المتقابلة وبضحكات مكتومة ثم رنانة ، قصص شهور مضت ونوادر سنين فاتت ثم انفردت

احداهن بأختى تتناوبان أسئلة وأجوبة عن الحال فيم قضاؤه والإحساس ما طعمه والرؤى ما شكلها ، والمستقبل أى ألوانه ثم يأخذهما الضعف والنوم إلى أجازة مؤقتة عن الحكايا والأسئلة .

أما غرفة أبى فلا يمسها أحد ولا يقربها سواه وأمى وفيها سهر طويل وانشغال مقيم بالغد وترتيب فائق من الأم عن احتياجات الإمداد بالطعام والغطاء وأمكنة النوم ومدد الإقامة ووسائل الهدايا وطرق الإنتقال لمكان اقامة الفرح وعن الذين سيأتون من القرية ظهيرة عند كتب الكتاب وعقد القران ، فهم الوفد الثانى الذى لايبيت لقرب المسافة وتوفر المواصلة السريعة .

والنوم المستخف بزحام محيط هو ما أحسه بعد ساعة من تقلب رأسى فى مخاوقات السعادة والحزن الداخلى وعن دقات متعجلة منضبطة (..) لذكرى عاطفية وحلم عذب ، أعلم أنه عند الصحو إذا بالمكان سيكون خلية نحل وسعى نمل ، الوجوه كلها فى توهج الصباح وألق اللقاء، من الاسكندرية جاءت عمتى وعمى ومنها أيضاً بنات عمتى بأطفالهن يتدافعون ويلعبون ويضربون الآخرين ويلتقون بوجوه يعرفونها من سابق الزيارات المتبادلة فيستأنفون لعباً لم يتم وشجاراً لم يكلل بفوز ويصحب الزوجات أزواجهن يتعاملون برقة آمنة وترقب أليف ويتفق أحدهم مع خالى فى مزاج تدخين الشيشة فيجلبها خالى إلى شرفة منزلنا ويضعها على مساحة من البلاط ثم يغير ماءها ويضبط عود الغاب بها ثم يحرق فحماً فى إناء صفيحى قديم كدسه بالتراب الذى أسود بالنار ثم يرص المعسل

بعد فضه من ورق أبيض فى علبة كرتونية خضراء رسمت عليها رسوم بدائية ويضبط الشيشة فى عشق ثم يسحب أنفاساً من الدخان يخرجها من أنفه وفمه ثم يضرب على صدره فى صوت متضخم متمثل عظمة المماليك قائلاً :

ـ صحة وعافية يا راجل يا سبع .

وأطفال العائلة كلهم يتابعون تحركاته ويقتربون من ناره ودخانه فى فضول شيق وأخواتى والبنات يتابعن فى ضحك وسخرية أحداثاً شديدة الموسمية فى منزلنا ويأخذ خالى بين أصابعه عود الغاب يمسحه ببطن كفه ويقدمه إلى زوج بنت عمتى الذى يتسلمه ضاحكاً شاكراً ممتناً فيضعها فى فيه ويدخن وقد سر فعلاً من تعاملنا مع هذا الطقس العادى بشىء من الدهشة وكثير من المتابعة كان يراها لأول مرة .

ثم ينطلق الأطفال بعد ملل المتابعة إلى صخبهم المدوى يجرون فى كل بقعة من المنزل والحق بأحدهم وهو يقرر تصفح مجلد «البداية والنهاية» لابن كثير فيمسك بغلافه فيشعر ثقل الكتاب عليه ويكاد يسقط فوقه وهو مذهول فى غرابة ، أنقذ الكتاب وأعيده تلمحنى أمى فتصرخ فيهم ألا يقترب أحد من المكتبة . أحسن عمكم .. ثم تتوقف عن التهديد حتى لاتفسد هناء اللحظات مكتفية بإشارة من يدها يعدو الطفل إلى رفاقه متجاهلاً الموقف برمته ، لكن آخر يقف أمام مرآة طويلة فى غرفة النوم ويبدأ إلقاء الأمشاط وفرش الشعر وعلب الكريم وشرائط كاسيت

منسية على الأرض فى بساطة وطفل يعبث فى كل مفاتيح التليفزيون وتسرع أختى فى غلق باب غرفة الجلوس وتمنع أخرى اثنين منهم من اقتحام غرفة نوم أبى وصلاحتى العتبة ورأيا أبى جالساً يقرأ القرآن وأمى تبحث عن نقود فى مكان تحفظها فيه ، تأتى أختى من خلف الطفلين وتربت على ظهريهما النحيلين طالبة منهما التراجع للصالة التى إمتلأت بأطفال كثيرين أنادى على واحد منهم بأسمه فلا يرد فأكتشف أنه ليس أسمه بل وليس واحداً من أطفال العائلة على الإطلاق بل هو إبن الجيران فى نهاية الشارع التقطه طفل من العائلة ولعبا معاً ثم دخلا إلى البيت ليشاركا فى الإحتفالية ، أطلب منه محاولاً أن أكون عطوفاً الخروج حتى لاتقلق عليه أمه أوصله إلى عتبة المنزل فأجد طفلاً من العائلة يقف أمام الباب مع طفلين غريبين ويدعوهما للعب معه فى الداخل .

والأمهات مشغولات عن رعاية أى طفل فضلاً عن إنهن لايستطعن رعايتهم فى هذا الضجيج أصلاً ، فالأمهات كلهن فى المطبخ الآن ، جاء أولاد عمتى من المحلة الكبرى ومعهم صحبة أخرى من الزوجات والأطفال يتفرقون إلى الأماكن الطبيعية الأطفال إلى المرج والنسوة إلى المطبخ لإعداد الطعام حيث ازدحمت عشرات من الصوانى والأوانى المعبأة بالباذنجان المقور والأرز معصور فى حمرة المحشى والأصابع تمتد وتعبأ وتصف وأوانى فوق الموقدين المشتعلين بكل عيون الغاز البطاطس تلقى على الصلصة وأصابع الكفتة تغرق وهى بنية محروقة إلى الآنية فتحمر بالصلصة السائلة ودوائر الغليان تتحلق فى الأوانى وتصدر

وشيشها المستطاب وآلاف من قطع الخيار والطماطم فى سلطة تملأ صينية كاملة فى شكل هرمى متكتل ، وتقطعت مئات من قطع الخبز الساخن الذى جلبه خال آخر بعلاقاته مع عمال المخابز جاءت الأرغفة بالمئات ساخنة مفرودة موصى عليها محملة فى أسبتة اندفعت نحو المطبخ فور حضورها مع مقارنة كل العمات وبنات العمات وزوجات أولاد العمات بين الخبز فى مدنهم اللون والشكل ومدى العناية ومسافة الرعاية وسهولة الشراء ونصيب صناديق القمامة من البقايا .

تقلب إبنة عمة بملعقة كبيرة صينية المكرونة تغوص فى الحمرة بقطعها الصغيرة المشكلة المضلعة ثم تسأل أمى عن حاجة وقد تصببن جميعاً عرقاً واشتدت وجوههن بخاراً ولكن مسحة بأصبع على جبهة تكفى لرنة ضحكة وحكى نذرة وقص طرفة وسؤال عن حال واستئناف لحماس نشيط صادق لأجل إطعام الأفواه المستضافة القادمة للفرح ، وسط دعوات حارة لإتمام الأمر على خير وعقبال الأولاد والحاح لتزويج الابن الكبير (أنا) وترشيح ست الحسن والجمال أو ملاك قادم من السماء أو فتاة مهذبة جميلة جارة لإحداهن ، تعتقد أنها النموذج الوحيد للجمال على وجه البسيطة ، خصوصاً لو كانت فى كلية الطب أو الهندسة ثم فتوى من احداهن لن أتزوج سوى صحفية مثل ، ثم تخوف من أمى على فطمئنة تتبرع بها كثيرات .

أحد الرجال القادمين إلينا يريد الخروج من باب الغرفة المطلة على الحديقة إلى الصالة ثم إلى باب المنزل للذهاب لمشوار عاجل ، يلتبس

عليه الأمر فيدخل إلى المطبخ بدلاً من ردهة باب الخروج فتضحك النسوة ويشرن له إلى الباب .

من الشرفة يكون أحد أبناء العمومة يعد فى تمام حرص ودأب حب وإخلاص متفان كل لزوم زينة الكهرباء على واجهة المنزل وفوق البنايات المجاورة وعلى الأعمدة والجدران ويتباهى به أبى لحرفته فى الكهرباء والتى يشتهر بها فى المحلة الكبرى وكيف أخلص إلى حد جلب هذه الأشياء إلى الفرح ، ماكينات كهرباء ومئات من المصابيح الملونة وعشرات من النجوم الكهربائية المستديرة وحوله أبناؤه الصغار الذين يربيهم على الصنعة وشرب الحرفة وصبيانه العاملين عنده ، يصعدون سلالم ويتسلقون أسواراً ويركبون شرفات ويهتفون على بعض ويربطون أسلاكاً ويعلقون مصابيح وهناك تحضر سياراتان لابن عم للمشاركة فى انتقال المدعووين ، تملأ الأضواء الشارع كله فتطلق فيه نهاراً عاجلاً فى نهاية الشارع ، يبدو ابن عمة ماتت منذ سنين طويلة كافية لئلا يبقى فى ذاكرتى لون بشرتها أو سمة ضحكتها أو طعم ملمس كفها على كتفى ، أخبرنى أبى أنها ماتت ولم استقص للآن سن وفاتها وأخبار موتها وكيفية رحيلها عند البلدة أو غياب ابنها عنا سنيناً ، كان قدومه فيها نادراً ندرة ادراكنا لعدد ابنائه منذ خروجه من الجيش بعد معركة ١٩٧٣ حيث أصيبت أذنه بمرض ما أضعف السمع وأرق الجسد وخبره عندنا قليل وحضوره لدينا مبتسر يجيىء من نهاية الشارع ملمحاً دون وجه كامل وصحبة دون معرفة وافية وحين يدخل إلى ردهة المنزل يدب فينا حنين

دفين وذكرى مفردة وعصف لتراب سقيم علق على جدران قلوبنا ، فتزاحمت العائلة الوافدة من كل صوب كى تلقى الإبن العائد بعد غربة (يبعد عن مدينتنا عدة كيلو مترات فقط) يحضنه أبى بوفر من الدمع والتصاق للصدور وقُبل موزعة على الخدين .

ـ كيف حالك يا خال ، لك وحشة والله العظيم ، ألف مبروك ثم تندفع إحدى خالاته إليه فتأخذه فى حضن افتقد جسده النحيل ووجهه الشاحب وجلبابه الوسيع وشاربه القصير وهدوءه الرزين وبسمته الوادعة وينام برأسه المندهش فوق كتفها القصير البض اللين وهى تبكى متشنجة جاذبة ذكرى أختها البعيدة وابنها الوحيد فى صدرها بعد فرقة ثم يقدم لها أبناءه وزوجته الذين أُخذوا بحرارة اللقيا وزحام المشاعر وارتجاج الأحاسيس فوق الوجوه فى العيون المشوشة بالحمرة والدموع والفرح وخلط غير مدبر من العواطف .

الأطفال الهادئون يتعلمون الصخب والأقارب مستغربو المكان يندمجون فى المكان والزحام والجسور البعيدة السميكة بين الناس تعبرها الكلمات والمشاركات ، فى إرتباك وتوجس من خطأ ما قد يثب فى أى مكان ماق الدائرة الواسعة من العالم الخاص بنا ، يسأل ابن عم هل اطمئن أحدكم على استعدادات البرج ؟

بسرعة وحماس تتشابه الآراء حول ضرورة الذهاب للإطمئنان فهو الفرح الأول فى العائلة الذى يقام بعيداً عن سطح منزلنا الذى شهد

أفراح اخوالى وخالاتى وابن عمتنا حيث كان السطح يمتلىء بالمقاعد الخشبية ذات القاعدة الخضراء والنقش حول المسند بأسم صاحب محل الفراشة ويقيم العمال أيضاً مكاناً عالياً قليلاً بألواح من الخشب ، فوقها مقعدان للعروسين ، وفى آخر لحظة دائماً نسرع إلى طنطا بسيارة أحد المعارف لشراء باقات من الورود لوضعها خلف المقعدين وأمام ملاءة فاخرة مطرزة كبيرة كنا نستخدمها فراشاً ليالى العيد على سرير والدى ، وعندما تطورت علاقاتنا بالأفراح صرنا نذهب إلى المدرسة الزراعية بالمدينة ونشترى من بستانها الورود والزهور بحرص من أحد اصدقاء العائلة الودودين والمخلصين حيث يعكف على هذه المهمة الخاصة وكان دائماً ما يباشر تأكيداته لنا بأنه كفيل بها وبأن كل شىء على مايرام ثم يشرح ـ فيما لم يطلبه أحد منه ـ أنواع الورود التى سيأتى بها وأهميتها وأفضليتها على الأصناف الأخرى والحكمة من بقائها طويلاً والعامل الذى يمت له بصلة مالا نعلم كنهها الذى سيولى إعداد الباقات عناية فائقة ولن يفرق أبداً عما نأتى به من طنطا وبنها ، ثم يضيف طبعاً أن الورد خسارة فى العريس والذى يكون أحد الأخوال فيجب أن نضع وراءه جيزة أو نخلة حيث أن هذا مقامه ويتلقى كلامه فى ضحك مرتج بينما يعالجه العريس بكلمة ساخرة أو بلكمة ساخرة أيضاً .

وكانت الفرقة الموسيقية التى تعزف فوق السطح جديرة بالعزف فوق السطح ، فهى مكونة من بعض الشباب يقودهم جار لنا محترف فى فرقة الأفراح ، وكان أحد أصدقائى عازفاً بها ويمكث طيلة صداقتنا يعاير

أبناء العائلة أنه الذى زوج آباءهم وينادى على صبى منهم فى لهجة آمرة حاسمة .

فلا يطيعه الصبى فيقول فى حسرة .

ـ شوف العيال ، أنا يا إبنى الذى زوج والدك ، وكانت الفرقة دائماً مثار جدل حول الإتيان بها وكفاءة القيام بمهمتها وأجرها الغالى لكنهم كانوا دائماً يأتون بها وتقوم بمهمتها ولا يكون أجرها غالياً حتى بدأت الفرقة تبعاً لقفزات الدنيا تقفز فى الآلات فتجاوزت جارنا الطيب الذى أصيب بمرض السكر وصار صديقى أحد نجوم فرقة أخرى من العازفين على الآلات الحديثة مع فناء النقوط الذى شبعنا اثناءه ضحكاً على ما يفعله أحد أخوالى بهم ، فقد كان يتبارى فى الرقص يؤدى رقصة طويلة شرقية رائعة فيها ليونة الحركة وخفة القفزة ورشاقة الإلتفاف وانثناءه المحترفين وروح مرح يفتقدها كل راقصى مصر ويقترب بصدره نحو العريس مقلداً أمهر الراقصات فنضج بالضحك ثم يداعب والدى الجالس فى وقار وإتزان فيبتسم الوالد فيعد الخال هذا نصراً فينطلق بين الدوائر التى تتسع حوله مصفقة مهللة محية ، ويجذب منهم تصفيقاً حاراً ومجنوناً أحياناً حتى يقرر التوقف فى لحظة مجد ثم يطلب وهو مهدج الصوت لاهث الأنفاس سيجارة من أحدنا ثم يمسك بطفله ويرفعه على كتفه ضاحكاً ويطلب منه مواصلة الرقص بدلاً منه فيقلده إبنه فى انطباق يدعو للدهشة والضحك .

وكانت سهرة الفرح دائماً معلقة بحكايات بين المقاعد وعلى درجات السلالم عن الزفاف ونحن نتبادل إشارات وتلويحات مفهومة من الجانبين فيضحك من يفهم ويسايرنا من لم يفهم ، ويبرز أحد الحاضرين بحكاية الصديق الذى أخذنا صبيحة عرسه إلى شرفة الشقة حيث كنا ثلاثة يتوسطنا وأمال جذعه على إفريز الشرفة ومضغ كلماته فى خجل وتردد وخوف يحكى عن ليلة الدخلة وكيف لم تطعه رغبته وخذلته قوته ، لعن رهبة الموقف وقلة الخبرة ومفاجأة الانفراد بأول إمرأة لأول مرة فى حياته وكان لايدخن ومن ثم تابع تدخين بعضنا بشغف التنفيس ثم استطرد فى بطء أن زوجته كانت طيبة هدأت روعه وحاولت مساعدته حتى أنها خلعت ثيابها كلها عنها وربتت عليه وأنامته على صدرها وأسرت له أن هذا شىء عادى وأنها لن تلح عليه فهى أمور تحدث دائماً وكان يسألنا هل هى أمور تحدث دائماً وتركنا للمتزوج فينا أمر الفتيا فأرسل فيه إطمئناناً جاداً وأعلمه أنها مسألة طبيعية جداً ولاداعى للقلق ودعاه لسيجارة فلم يستجب فأكمل أن الليلة حاول مرة أخرى بهدوء ثم أحال هذا كله إلى طهره وعفافه من قبل وأن المرأة عادة تكون أكثر فهماً ودراية وأمومة فى مثل هذه المسائل ثم نكمل جميعاً القصة وبضحكات عالية مدوية تلفت أنظار الفرح إلينا حين يصعد هذا الصديق مع زوجته وعلى كتفه طفله قادماً نحونا ونحن من فرط الضحك تعمى عيوننا عن رؤية ابتسامته المستفهمة وتوعده لنا بطلوع الروح .

حلقات الأصحاب والأصدقاء فى هذه الأفراح فوق السطح كانت

مميزة ومتميزة جداً فقد كان كل عريس على موعد مع أصدقائه بعد زفافه، فقد أسرع أصدقاء أحد الأخوال إلى شقته فى الدور الأرضى بعد أن دخل هو وزوجته بعشر دقائق وبدأوا الدق على النافذة بعنف الصراخ والضحك ثم الرقص والغناء ثم عودة إلى الخبط على الجدران والنوافذ فى رعب بوليسى ساخر ومضحك لكن الخال لايجيب حتى لايتمادى الأصدقاء فى دعاباتهم الثقيلة فيتدخل أقارب عاقلون لفض هذا الضجيج ويرحل الأصدقاء فى ضحكات متفرقة منسحبة وثنائيات مبتعدة وهمهمات منتهية .

أما حلقة من أصدقاء خال آخر فقد اكتملوا ثمانية ومضوا جميعاً إلى الشارع الذى تقع فيه شقة العريس وتحلقوا تحت الشرفة العالية المغلقة وأخذوا فى إصرار ودأب وصوت عال ينادون عليه .

ـ انزل يا أحمد .

فلا يستجيب لهم فيرتفع صراخهم حاداً وضجيجهم مدوياً .

ـ انزل يا أحمد يا جبان .

وينحنى أحدهم إلى الأرض فيلتقط حجراً صغيراً ويقذف به نافذة أو سور الشرفة أما الآخر فيضع كفيه حول شفتيه وينغم النداء .

ـ أشوفه ..

ثم تبدأ الحلقة فى التفكك قليلاً على انفراط الإصرار وثبط العزيمة ويتدرج رحيلهم ثلاثاً والآخرون وراءهم لكن أحداً يتنبه ويصرخ .

ـ إنه يفتح الشباك .

فيجرون نحو الشرفة فلا يسمعون حساً ولاخبراً ويدركون اللعبة فينتقم بعضهم من صاحبهم أما الآخرون فيلقون حصوات على الشرفة محبطين من هزيمة صبر العريس .

كانت الغرفة ملأى بصديقات أختى التى تتوسطهن فى ثوب عرسها جميلة متألقة مثل القمر بعد أن أخذت زينتها وصعدت فرحتها إلى عينيها وشفتيها وإحرار خديها ونور جبينها وثوبها الأبيض المطرز وغطاء شعرها الإحتفال ، اقتربت منها وهى منشغلة بنفسها عن الجميع وبفرحتها عن نفسها ، أمسكت بيدها فنظرت مبتسمة لى فقبلت كفها داخل قفازها الأبيض «الدانتيلا» الشفيف فأخذتها الدهشة والفرحة .

وقلت لها

ـ مبروك يا قمر .

٣

الأهلى والزمالك

النخل لم يعد نخلنا

عبرت الردهة المؤدية إلى الصالة فارتج شىء داخل ، الصالة خالية فى المنزل الكبير ، انسحب منها الضجيج وانطوى تحت إبط النوم .. ونام؛ عبثت عينى فى الفراغ ، أضواء ناحلة تفرزها «وناسة» خضراء معلقة فى السقف .. ساعة الحائط أُخليت لها الضجة والصخب تماماً دقاتها تحفر الجلد وتبقر الآن الأذن بأن شيئاً ساحقاً اسمه الزمن هنا ينظر وينتظر ، أصوات ازدحام أرجل الفراخ والطيور فوق السطح تجرى واحدة وراء أخرى ويزعق ديك أعمى - ظن أنه الفجر - ، ثم اشتركت حمامة فى «المنور» فطارت مرفرفة فاصطدمت بعلبة من الصفيح تستخدم عشاً لها فبعثر الصمت مع القش المتساقط من العلبة ، فأغلقتُ النافذة المطلة على «المنور» واستدرت ناحية الأريكة المفروشة بالخَضار ومسند يتوسطها ومساند أخرى ملقاة هنا وهناك على الأرض بجانب الأريكة المقابلة آثار فوضى المشاهدات المستغرقة لشاشة التليفزيون ، انسل صوت أخى متسللاً من غرفة النوم المفتوحة على الصالة متقلباً على فراشه ثم سائلاً فى يقظة ظننته يتحدث مع نفسه إلى أن أفقت على وضوح السؤال من غمغمة النوم .

- أين ستشاهد المباراة يا «أخوى» ، يقول «أخوى» برنة حب و زهو والتصاق يفتح صدرى ويسكنه و... يضيف وطقطقات السرير وقرقعة الخشب من تقلبه الثقيل المتمرد يضفى على إضافته صيغة الفزع .

- هنا أم فى القاهرة .

أجبت فى حدة غير مبررة وألم يخشى فضيحة الدموع (التى ستأتى ستأتى) .

- لا أعرف .

أحس أخى خيبة أمل فى الإجابة ، فتفرغ لجلب النوم وتركتنى كلماته مستنداً على الأريكة نائماً فوقها متقلباً عليها بعد شعورى بوجع كتفى النائم .

التفت ، فوجدت أمى تدخل من باب المطبخ إلى الصالة حاملة صينية معبأة بأكواب «الحلبى» الصفراء تصعد منها الأبخرة وتفترش بقايا مياه غسل الأكواب على سطحها وبإبتسامة تشق طريقها فى زحام الأحاسيس والمشاعر والانتباهات المحدقة فى الشاشة ، أشير لها أن تتحرك قليلاً لأنى لا أرى جانباً من المباراة ، أما أبى فيصرخ عندما تتحرك أمامه .

- هل هذا وقته ؟

فتحاول أمى ضاحكة أن تحضن روعه

- هذه «حلبى» هدىء أعصابك .

يشيح أبى بكفه .

- بووه

أبخرة «الحلبة» الساخنة مدموجة مع تنهداتنا جميعاً ، نملأ الصالة نزدحم أمام الشاشة نلصق عيوننا فوق أقدام اللاعبين ونتحشر فى حشائش المساحة الخضراء المترعة باللهث والجرى والكرة البيضاء ذات الرقط السوداء تشعل فينا الوهج .

كانت الصالة مزدحمة بهم جميعاً - أيام كانوا هنا جميعاً - أبى جالساً على فرشة محشوة بالقطن مستطيلة لينة على مبعدة أقل من متر من جهاز التليفزيون ووضع جانبه تحت «البوفيه» كوب «الحلبى» ، وكل لحظة يشير إلى خالى الجالس على مقعد خشبى ملتصق بالتليفزيون تماماً حتى نرى ظلال أضواء الشاشة وحركات اللاعبين فوق أنفه الطويل الأبيض واللامع يشير له .

- حاسب .

يخشى أبى تحرك قدم خالى صاحب الجسد الضخم والطول الفارع والعنف الفطرى الجميل الذى يثور فى لحظة ويهدأ فى الدقيقة التالية لها ، أو يعاند معنا فيستمر فى عنفه - لمجرد أن يستمر ولمجرد ألا يشعر أنه لم يغضب لسبب قوى - وكانت جلستهما أمام الأهلى والزمالك على اعتبار لكليهما دائماً ، فخالى هو الوحيد الذى يشجع الأهلى فى عائلتنا كلها كلنا نستحم فى حب الزمالك والتعصب له والإنتماء إلى انتصاراته

وانكساراته وغمة النفس التى يُصيب بها مشجعيه دائماً ، ومنذ اليوم الأول الذى شعرت فيه حب الزمالك جنينا فى صدرى وأنا نادم على حب هذا النادى ، فى الحقيقة كلنا نادمون على حبه ولكننا جميعاً أيضاً نقول ما باليد حيلة ثم نعود لحبه والتعصب له والتطرف لأجله والنقمة عليه وسبه وقذف كل لاعبيه بالرعونة وقلة الإنتماء مثل أى عاشق يعبد حبيبته ويعود لها رغم أنها تخونه عند أول ناصية يتركها عندها .

والبيت كله ينتفض بالزمالك فى هذا اليوم ، فالأخوال كلهم وابن العم وأنا وأخواتى البنات وأخى الصغير كلنا نزدحم أمام الشاشة خالى الأكبر يجلس على الأريكة فى المقابل واضعاً ساقه تحت فخذه والساق الأخرى مدلاة على الأرض حيث يجلس خال ثالث متربعاً فى تحفز وفى كل لحظة نطالب جميعاً من أبى ألا يتحرك حتى نرى الشاشة كلها وخالى الجالس على الأريكة يرفع كوب «الحلبى» إلى شفتيه حين تقذف كرة قوية فتهز الحلبة فتسقط فتسرع أختى المنتبهة إلى المباراة تلتقط قدميها من الأرض ، ثم يتكاسل الكل عن القيام لإحضار قماشة لمسح السائل المنسكب، بينما يلتفت أبى فيرى الموقف فيزعق فى خالى :

ـ لماذا هذه العصبية ؟

فنضحك جميعاً ويطلق خالى الأكبر بشاربه المنمق وشبابه المزدهر رغم تجاوزه الأربعين .

ـ حلاوتك يا أستاذ سيد .

ثم يقفز على ظهره فى حركات سيرك ويتقلب حتى يصل لأبى الذى عاد لهموم المباراة فيدفعه أبى بعد المفاجأة ويبعده عنه

ـ بطلّ ألن تكف عن هذه الحركات .

فيدفس خالى الممثل القديم دقنه فى عنق أبى وظهره فى محاولة منه لجره بعيداً عن المباراة ولمعاكسته ـ حتى دون سبب سوى أن خالى خفيف الظل يضغط على غدة الضحك عندنا جميعاً بحركاته ـ أما خالى الجالس على الأريكة فقد قفز الآن فوقها وهو مفزوع كأن تمساحاً خرج من بطن حشو الأريكة .

ـ ضاع هدف أكيد هذا لاعب حمار كان المفروض يضربها بجانب قدمه اليمنى فتلف وتدخل فى سقف الزاوية .

ينتبه أبى له فيقول وهو فى نصف قيام لرؤية مجريات الكرة جيداً :

ـ لا .. كانت بعيدة يا سيدى .

أخواتى يتحركن فى ملل الآن ، الكبرى تستعجل النصر ثم تُغنى فى الكرة بشكل يدفعنا كلنا إلى الصراخ فيها .

ـ والنبى ... يا سلام ... والله .

فتصر على رأيها أن الزمالك سيىء وأن أحسن لاعب هو أسوأ لاعب نراه نحن جميعاً ... يقوم أخى الصغير من الأرض إلى توسط الصالة فنضج جميعاً منه ثم ينطلق إلى الشرفة وبعد لحظات نسمع كلنا ضربات

الكرة فى الجدار وخبطات القدم على البلاط وصيحات وتأوهات فوز وأهداف وهمية فيضحك خالى الكبير .

ـ شادى قرر يخلص نفسه ويحرز هو الأهداف فى الحائط .

يبتسم أحدنا ويضحك آخر ويلعن ثالث مجريات اللعب البطىء بينما يفيق أبى من تركيز انتباهه وعمق إهتمامه ويسأل :

ـ ما هذا الخبط ؟

فتنادى أمى أخى فى حزم وصراخ .

ـ تعالى هنا يا شادى .

فلا يسمع فهو أساساً لا يريد أن يسمع ، مندمجاً فى إحداث نصره الذاتى وتحققه الفردى فى فوز يصنعه هو لنفسه وبنفسه بعيداً عن لاعبين يصيبون أخوته وأهله بالشلل لجراء عجزهم عن هدف وتستمر أهداف أخى فى الحائط حين يقفز خالى الأهلاوى من مقعده بعد هجمة ناجحة لفريقه على مرمى الزمالك ويصرخ .

ـ ياه ... هدف أكيد .

يتنفس أبى براحة آمنة بعد ضياع الفرصة ويلكزه بكفه .

ـ قال يعنى الولد لاعب قديم فى الأهلى ، يمكن مشترك فى النادى الأهلى ونحن لا نعلم يا أخى .

يغضب خالى من المداعبة فينفس الهواء من أنفه دون أن يملك حرية الغضب المتبادل حتى يضيق بحصار أخوالى الآخرين .

ـ بالذمة أنت فاهم حاجة .

ـ لا عليكم .. أهلاوى ماذا سنفعل له ؟ هذا خلقة ربنا ؟ تحاول أمى أن تناصر أخاها مهتز الموقف .

ـ يا بنى ما الذى يجلسك معهم ؟

يضرب خالى بكفه على فخذه .

ـ كى يعرفوا ماذا سيحدث لهم ؟ أصل لو قمت من مكانى الزمالك سيضع أهدافاً وأنا لا أريد لهم ذلك .

يقوم خالى الكبير إليه مندفعاً ويضربه على ظهره ويضغط على كتفيه ويكاد ينام فوقه بجسده النحيل .

ـ لا .. أجلس هنا .. ثم يواصل الضغط وخالى المُعْتَدَى عليه مستسلم فى إبتسام .

ـ أجلس لما ترى هزيمتكم وخيبتكم .

يقيم خالى ظهره فيسقط الآخر على الأرض فى حركة تمثيلية بديعة ويهتز بقدميه وساقيه فى رعشة الراقصين .

ـ قلبى ، ثم بالجيم ، جلبى ثم ينهض فى خفة ويسأله .

ـ ماذا تضع فى يدك «دشم» اسمنت .

وحين تندفع هجمة ضد الزمالك يصرخ فيهم أبى .

- وماذا بعد ؟ (وفى ضيق بالغ) لانستطيع أن نتابع المباراة منكم ، خلاص نروح نتفرج فى مكان آخر .

حرارة الجو محكمة بعد أن قررت أختى الوسطى أن تغلق كل منافذ الضوء وتصبح الصالة معدة لمشاهدة حقيقية للمباراة كأنها قاعة عرض سينمائى يحتج أبى ويقوم مسرعاً فيفتح نافذة الصالة ثم يعود لمجلسه ، وقد تحرك شىء فينا ، قلق وترقب وتسرب جاد فى شرايين الصدر يؤخر دقات القلب المفزعة وارتفاع فى نبضات متدفقة تبدو فى تحرك الأكف توتر القدم على الأرض ، إشتعال الخدود والوجنات حمرة ، أنفاس قلقة تهتز أمام أنوفنا ، قيام وجلوس ، يمنة ويساراً ، ضربة بالكف على الأرض، إمساك الأصابع بالرأس ، طرد الأطفال - أى طفل - لحظة قدومه نحونا ، صراخنا ضد كل من يعبر أمام الشاشة ، أنين المقاعد الخشبية تحت مؤخراتنا ، وجع الأرائك من إهتزازنا ، زحام وتشابك والتئام وتوحد واعتصار وانصهار ومعانقة ودفء صاخب ساخن .

حين يدخل صديق العائلة فى مرحه المعتاد وتشجيعه للأهلى الفرح يضج خالى الكبير مازحاً فى وجهه .

- ما الذى جاء بك هنا يا ولد ؟

وتتبعه : هى ناقصة ؟

- يكفى وجه عكر واحد هنا .. لازم ثانى يعنى .

يدخل ضاحكاً متلفتاً إلى خالى رفيق أهلاويته .

- يعنى ليس هناك أحد معى سوى هذا «الأتوبيس» يشجع الأهلى ، يلقيه خالى بمسند الأريكة الخشن .

يتلقاه قبل أن يحطم نظاراته وفى ندم ضاحك .

- خلاص أنا آسف ، أنا عيل .

ثم نقوم فزعين جميعاً قومة رجل واحد حيث ينفرد لاعب بالمرمى لكنه يطيح بها فى السماء يجرى خالى ممسكاً كتف الصديق .

- شفت .. الولد رقص واحداً (ثم يحرك جذعه راقصاً) والثانى (يواصل الرقص) ويعدى من الثالث (يميل بقدمه وساقه كأنه يستدير بكرة) وبسن الحذاء كرة مقشرة مثل الصاروخ .

فيبتسم الصديق فى أسنان تكشف ضحكة غارقة مكتومة .

- طيب ثم ماذا بعد ؟ ماذا حصل يعنى ؟

ثم يشير إلى الشاشة ويضيف

- يا حبيبى الكرة ضربة مرمى ، هل هناك قانون جديد فى كرة القدم أصدره الإتحاد الدولى إسمه ان الزمالك لما يجيب ضربة مرمى تحسب له هدف .

فلما يشتد فى سخريته ، تعالجه أكفهم بضرب خفيف يسكته .

خرير الماء صاعداً من زاويتين فى المنزل ، الحمام الكبير ، وحوض الماء أمام الحمام الصغير ، يغسل قلقنا ويضوى فى وضوء نصفنا - على الأقل-

نلحق بصلاة العصر فى استراحة المباراة وسط حفيف التوقعات والتعبيرات عن خيبة الأمل فى مستوى المباراة وضحك متأخر عن حادثة حصلت ، ومتابعة لإعلان ما على الشاشة ، وسؤال حول موعد بعد المباراة ومكالمة هاتفية يجريها خال ويبحث عن ورق رسمى فى حقيبة بنية ضخمة يطلبه صديق العائلة كى ينهى اجراءات خاصة بالنقابة لأبى ، وأحد الأخوال يقف فى الشرفة وأخى يواصل لعب الكرة ، وأنا أقلب فى صحيفة أو أكمل فصلاً من رواية وأخواتى يذهبن إلى المرآة أو المطبخ أو الجنينة وهناك يجلس والدى بعد الصلاة يداعب الشجر وينغمس فى الزهور ويهندس الخضرة وكأنه لم يكن منذ لحظات مضبوطاً فى توتر وإهتزاز ، وحين تبدأ اللحظات الأولى من الشوط الثانى يسعى والدى إلى الصالة عابراً سلالم الجنينة ، الشرفة ، الغرفة ، تلفت نظره فوضى ما أو عبث بيتى فيطلب تغييره وهو يجلس أمام الشاشة ، والأخوال والأهل يعيدون جلستهم ويتقاطرون من أمكنتهم ، ويتمطى القلق مرة أخرى فوق الصدور وتحت الجفون ويشير أحد الأخوال إلى مكان ما فى مدرجات الجماهير .

ـ هذا هو صاحب العملية كلها ، يقف وينادى الجمهور فيهتف خلفه ويغنى وراءه ـ عندما حضرت المباراة فى الأستاد (وهى مرة حكى عنها خالى كثيرا) كنت جالساً بجواره وكنت فاكر نفسى كبير المشجعين، طلع مجنوناً فعلاً ، والله العظيم لايرى المباراة على الإطلاق طول الوقت ظهره للملعب ووجهه للناس يصرخ فيهم ويسبهم ويقذفهم بأنبل

النعوت ويتهمهم بتشجيع الأهلى وليس الزمالك ويحثهم على الهتاف ، هذا الرجل وراء الزمالك فى أى مكان يذهب له .

يلتفت الخال الأهلاوى الوحيد إليه منقذاً نفسه من وضع المتهم .

ـ ولم تقل يعنى ماذا حدث لك وأنت راجع من المباراة ؟

يضحك الخال ويقاطعه .

ـ لا داعى .

يهز الأخر رأسه منتصراً وهو ينظر لنا .

ـ أكل علقة ساخنة ومعتبرة .

يقفز أخى إلى عنق خالى .

ـ صحيح يا خالى .

هذا الخال متطرف حتى النخاع فى تشجيعه حتى أنه بعد فوز الزمالك أحياناً يقف على سور شرفة منزل خالتى فى الدور الثانى العالى وهو يجلس فوقها أو يسير على حافتها ، هاتفاً للزمالك منادياً على مشجعى الأهلى ـ ومعظم الجيران من مشجعى الأهلى ـ ويناديهم واحداً واحداً بينما يختفون جميعاً يطلب منهم الخروج وعدم الخوف وينادى فى حسم بهتافات تشجيع للزمالك ويذكر اسم لاعبيه وكل بحسناته طيلة المباراة سواء احرز هدفاً أو غازل لاعباً من ـ الخصم ـ أو أتى بحركة فنية جديدة ، يأخذ فى رقصه ونحن نتابعه ونضحك ونحسمه وأبى يطالبه ـ

وهو فى داخل الصالة لم يره - أن يهدأ ويكف وأحياناً ما يشترى خالى - فى لحظات اليسر المادى - قطع حلوى وشيكولاته زهيدة الثمن وافرة الكثرة ويوزعها على جميع أطفال الشارع فى مناسبة حصول الزمالك على بطولة ما من فك الأهلى ويمسك بعشرات قطع الحلوى ويلقيها من الشرفة وسط الأطفال المتهافتين عليها ويصرخون عليه .

- زمالك ... زمالك .

ثم يدخل إلى المنزل هادئاً مرتاح البال مبتسم الوجه وقور الهيئة تماماً ويرتدى ملابسه النظيفة المطوية بعناية أو يدعو أحدنا بربع جنيه - أن يكويها - إلى أن يدخل هو الحمام ويصلى أو يغسل رأسه أو يستحم (أى من هذه الاختيارات) ثم يرتدى الملابس المكوية ويخرج لإستكمال انتصاره على رفاقه وأصدقائه خارج منطقتنا وهم أيضاً لايغفرون له على الإطلاق حال هزيمة الزمالك (وهو كثيراً ما ينهزم) وأحياناً ما كان يأتى أحد أصدقائه الحميمين ومنافسه الأكثر خصومة فى تشجيع الأهلى راكباً سيارة نصف نقل (نبذل جهداً فى استنتاج طريقة الحصول عليها) ويدعو كل صبيان وأطفال المدينة من مشجعى الأهلى (وهناك طبعاً من غير مشجعيه لكن يشجعون فقط ركوب سيارة واقفين وصارخين وقائمين بعملية تبدو حربية) ويقتربون فى هتاف وصراخ وعويل حقيقى ورايات حمراء وهتافات حمراء جداً ويقفون أمام منزل خالى مطالبينه بالخروج وما كان يخرج أبداً وربما خرج مرة واحدة ضربهم جميعاً ثم دخل إلى المنزل ..

ذهبوا الآن جميعاً .. راحوا هناك إلى حيث لانستطيع أن نلتم كلنا كما كنا أمام الشاشة فوق النجيل الأخضر على شاشة تليفزيون منزلنا الكبير ، صار لكل خال منزل وتليفزيون وأولاد وحياة ، . وسافر أبى وصار يتصل هاتفياً عقب لقاءات الزمالك أو اثناءها .

- كيف حالكم ؟

- كيف حالك يا أبى .

وفى جملة تتصدر السطر الثانى من كلامه يسأل .

- ماذا فعل الزمالك ؟

الصوت يأتى من بعيد والنبرة المترقبة المتوجسة (غربة الهزيمة أقسى مايخذل المهزومين) وكانت أمى دائماً تدعو أن يفوز الزمالك حتى لايحزن أبى فوق حزنه .

صار خالى بعيداً عنا أكثر من مائة كيلو متر يأتى أيام الأجازات الموسمية ولايعبر علينا إلا لماما وربما لم نعد نتحدث أبداً فى الزمالك ، وأجرى صديق عائلتنا عملية جراحية ثم عملية ثانية ومابينهما تحليلات وكشوف وخمود وحزن وفتور حماس ، أما الصديق الأهلاوى لخالى فسافر إلى دولة عربية ، ونراه على إستحياء وبتحيات رسمية متعجلة وهو مرتدى غطاء رأسى أبيض وينادونه يا حاج .

وسافرتُ أنا أيضاً وابتعدت فى القاهرة ، وصارت مشاهدة لقاء الزمالك والأهلى مشقة أمامى كلما حل علىّ فى القاهرة ، أبحث عن

مقهى أو صديق يرضى التروح خارج منزله ساعتها ومرافقتى ، أو أن يضيفنى فى عنف هذه اللحظات العائلية لمشاهدة المباراة ، فأمضى الوقت متحرجاً معزولاً عن كل طقوس ، مغترباً عن «حلبة» أمى وهتاف أبى وشجار العائلة وضحك الأخوال وأحياناً كنت أذهب إلى «الأستاد» أجلس فى مقصورة الصحفيين وحين تمر كاميرا التليفزيون أمامنا أتساءل هل سيرانى أبى وأخوالى والعائلة التى مضت كل بتليفزيونه وحياته بعيداً عن صالة منزلنا أين هم الآن ماذا يفعلون أمام الشاشة ؟

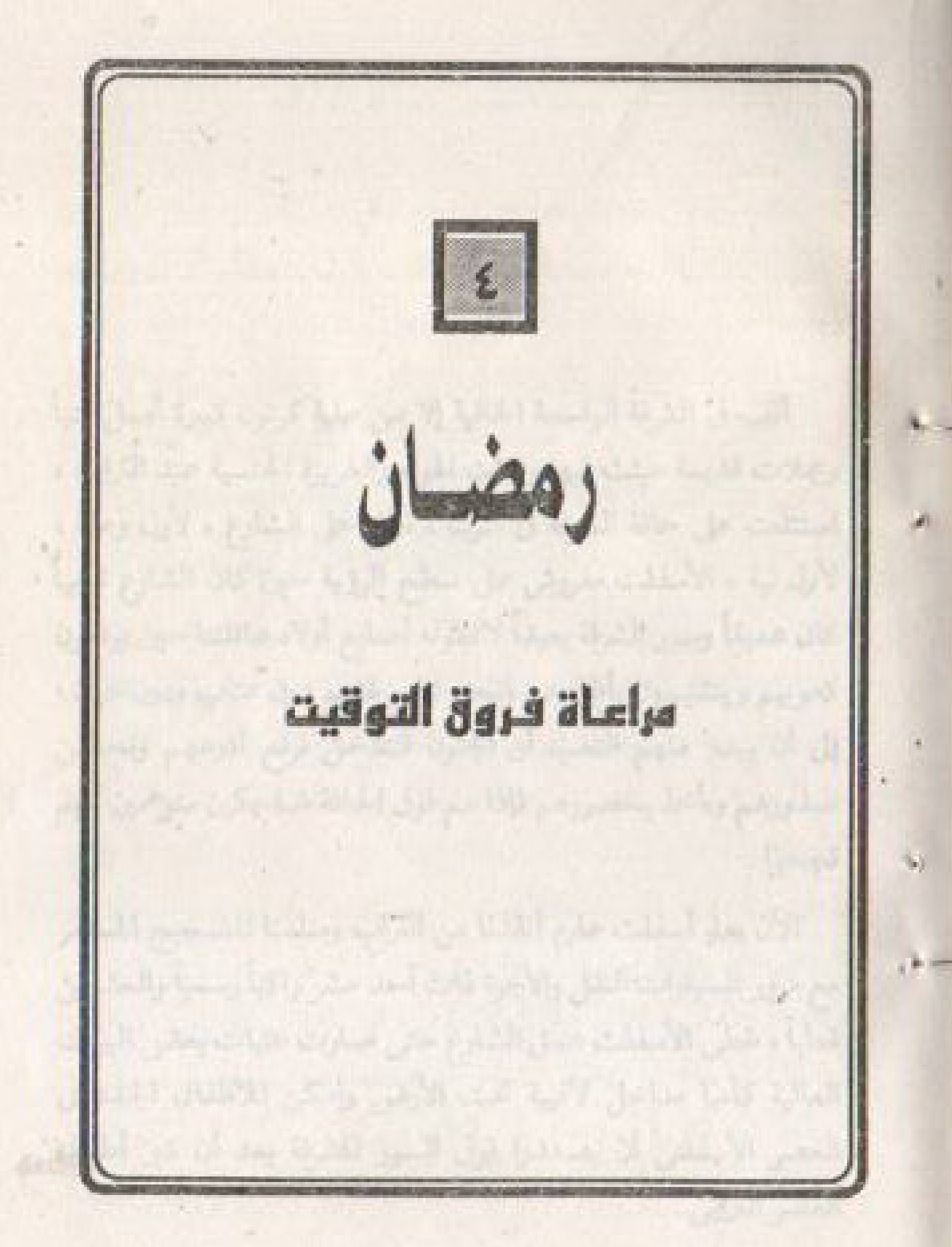
وحين كانت حبيبتى تقرر أن تصبح حبيبتى فعلاً كانت مهمتها أن تحب الزمالك مثلى تقترب من هذا الفريق كما أقترب وتحزن لهزيمته وتتابع نتائجه وتسأل أخوتها أو تفتح التليفزيون لحظتها وتطمئن هل فاز الزمالك ؟

وكنت معها يوماً حين كانت المباراة قد اقترب موعدها وقررتُ أن أعود إلى منزلنا القاهرى الضيق يبلعنى وحيداً أمام الشاشة «أبيض وأسود» أتابع المباراة لكنها أبت وقالت لى تعالى معى وذهبنا إلى قاعة ملحقة بمكتب تعمل به ، كان هناك رجل أنيق مهندم عليه مسحة الأجانب ووقار علمى محايد يجلس فى نهاية القاعة ووجهه إلى الشاشة ، وجلسنا أنا وهى على أريكة بجوار التليفزيون ، وبذلت هى جهداً فى ضبط الصوت وإظهار الصورة ودقة الألوان ومالت برأسها جانباً على مسند الأريكة تمشى وراء عيونى المحدقة فى الشاشة والتفت لها ورأيت عيونها الواسعة ووجنتيها عليها حمرة خفيفة وعلى شفتيها تغزل ابتسامة

وعنقها نحيل يغرى بالتماس ، وكنت أريد أن أعانقها إن أضعها على صدرى وألثم شعرها الأسود الناعم وأضم أصابعها فى كفى ، لكن لا أعرف ماذا حدث يومها فانفتح حوار ما أثناء المباراة بينى وبينها وقالت أشياء غضبت لها ، أفقدتنى كل روحى المحلقة ، هبطت بالروح إلى قواعد الأريكة الخشبية ، تحت السجادة المفروشة ، ومستها فى الأرض ، هاجمتها بقسوة مذهولاً بما تقول مفاجئاً مما تحكى ، وغضبنا وتركنا اللاعبين على المساحة الخضراء يضربون الكرة يضربون الكرة يحاولون الإتيان بنصر ومنع هزيمة ، وسرنا فى حديقة محيطة بمكتبها وهى تشعر بالإختناق يضيق على عنقها هذا الذى كنت منذ لحظات أتمنى معانقته ، وشعرت بأنفاسها مكبوتة تريد الإنفراج وطلبت أن تنصرف وتذهب إلى بيتها ، فارتبكت ، أحسست أنها تضيع منى ، كانت الأشجار تصدر حفيفاً خفيض الصوت والعمال يرشون مياهاً على الأرصفة الحاجزة بين الشجرة وخضرة منفوشة يعكف عامل على تهذيبها بمقص حديدى ضخم (أين شجرة الليمون فى منزلنا) الفروع الزائدة والأوراق المهووشة تسقط على الأرض بعد كل قرقعة مقص وداست أقدامنا على الأرض وأنا أحاول أن أبث فيها فرحاً ـ وأعتذر عما أعتقد الآن أنه ما كان يجب علىّ أن أعتذر عنه ـ حتى هدأت أو هكذا قالت واستكانت وشربنا عصير ليمون لى « وجريب فروت» لها حيث لم نجد عصير طماطم ، وحين أوصلتها قلت لها بشىء من المرارة .

ـ ألم يكن ممكناً مشاهدة المباراة كلها ، أكان يجب أن تتشاجر أمام الأهلى والزمالك . وكان الزمالك قد إنهزم .

وحين كنت فوق السطح رأيت حديقة منزل جدتى تظهر الآن خاوية إلا من نخلتين (إحداهما فسل لا تبلح) والأرض جرداء خالية من شجر زمان وخضرة الماضى حين كان الزمالك ينهزم ، وأنا لازلت طفلاً فأجرى إلى هذه الحديقة وانزوى فيها باكياً الهزيمة ، تأملت الحديقة التى أحاطها مالكها الجديد. (اشتراها منذ أسابيع من جدتى) بسور سدّ كل منفذ لها على منزل جدتى وبذر فيها بذوراً جديدة وقسم أرضها بزروع أخرى لكنه ترك النخل ، لكن النخل لم يعد نخلنا .



أقف فى الشرفة الواسعة الخالية إلا من علبة كرتون كبيرة تحمل كتباً ومجلات قديمة عبثت فيها رغبات الهواء والغريزة الجنسية عند التراب ، استندت على حافة الشرفة فى منزلنا ، تطل على الشارع ، لأول وهلة ، لأول نية ، الأسفلت مفروش على سطح الرؤية حين كان الشارع ترابياً كان عميقاً وسور الشرفة بعيداً لاتطوله أصابع أولاد عائلتنا حين يرفعون كعوبهم ويتشبسون بأظافرهم ونحن نتابع لهثهم دون عتاب ودون عون ، إلى أن يبدو منهم التعب أو الجنون فنتدخل ترفع أذرعهم ونحضن صدورهم ونأخذ بخصورهم فإذا هم فوق الحافة ضاحكين متوهمين أنهم نجحوا .

الآن يعد أسفلت عارم أنقذنا من التراب وسلمنا للضجيج المستمر مع مرور السيارات النقل والأجرة ذات أحد عشر راكباً رسمياً والعشرين فعلياً ، غطى الأسفلت عمق الشارع حتى صارت عتبات بعض البيوت العالية كأنها مداخل لأقبية تحت الأرض وأمكن للأطفال الجدد فى العصر الأسفلتى أن يصعدوا فوق السور للشرفة بعد أن كبر أطفال العصر الترابى .

ولكن الشارع خال تمر دراجة متعجلة تصفر صخباً ثم تصمت ، يخرج أطفال خالتى إلى شرفة الدور الثانى فى المنزل المقابل (منزلنا القديم) بسمرتهم الجميلة وأصواتهم ذات الجلبة الأكثر جمالاً ، ثلاثتهم يحتلون الشرفة بأجسادهم النحيلة للغاية أكبرهم يقف على الأرض يظهر صدره وراء السور ، أوسطهم يقف مستنداً برجله على مقعد تقف فوقه أختهم الصغيرة ويصيحون بآذان الصلاة ، يخرج تكبيرهم حاداً نحيفاً صاخباً مع «الله أكبر» ثم يضجون بالضحك المقرقع الذى ينتقل صداه للشارع الخالى بمرحه وطفولته وشقاوته .

كانوا يستعجلون آذان المغرب للإفطار .

وكنت أقف فى نفس الشرفة أصافحهم بعينى وألوح لهم بيدى ، ويتابعون هم إهتمامى بآذانهم المتعجل ، وصوت الشيخ محمد رفعت يأتى لنا من صالة منزلنا ونوافذ جيراننا يؤذن لصلاة المغرب حسب التوقيت المحلى لمدينة القاهرة ، أما المقيمون خارجها ـ نحن ـ فمكتوب علينا الإنتظار وهاهى أضواء خجلى تنبعث من مصابيح الأعمدة العامة فى توزيع غير منتظم وغير عادل ، فالأعمدة بلا مسافات محددة ولامساحات معينة ونصفها لايضيىء أبداً ونصفها الآخر يضيىء بلا طائل ، شجر قديم كان هنا فى المسافة التالية للمنحنى لكن أصحابه قطعوه وصارت المساحة معدة للبناء فبنوا أو باعوا ما أعلمه أن الشجر راح ، ظله على الأرض وحفيفه على السمع وخضاره فى أفق يبدأ بمزارع تتقلص كل يوم فى آخر شارعنا المؤدى إلى محطة السكة الحديد حتى

شجر الكنيسة الكاثوليكية فى ناصية الشارع البعيدة ، راح بعد تطورات المبانى والتوسعات المعمارية التى ابتعلت أشجار الكافور السامقة .

يتردد مؤذنو المساجد فى تحمل مسئولية إفطارنا فيتأخرون دوماً عن الدقيقة الفاصلة بيننا وبين القاهرة لذا ، ما إن يبدأ واحد منهم حتى يعقبه الجميع وتختلط الأصوات حلوها وغليظها ومنغمها وصارمها لكننى أنسحب من الشرفة إلى الغرفة وفى طريقى للصالة أصبح على الأسرة ـ أذن .

كم مرة قطعت هذه المسافة بين الشرفة ومائدة الطعام الممدودة أمامنا بمقاعدها السبعة (قبل سفر أبى) مقاعد حمراء مبطنة ذات مساند خشبية طويلة منقوشة بزهرة غريبة . كم مرة !

هذه الأمتار الصغيرة التى أعبرها فيعبرنى الزمن ويغسل وجوهنا من آثار المرور استسلاماً ورضا (وليس استسلاماً راضياً) وكنت أعرف منذ ظهور وجه المفتى على الشاشة ليعلن فتواه فى رؤيا رمضان كنت أعرف أنه «الهم» اللزج الذى ينساب تحت ردائى كلما جاء رمضان وهو نفسه الذى يأتى كلما رحل رمضان .

وأننى سأحمله فى صدرى وعلى ظهرى وأعبر المسافة إلى الصالة .

موقف أحمد حلمى شرس فى هذه الليلة حيث تزدحم مناكب البشر وتتوزع حقائب المسافرين وتتكتل جماعات المنتظرين وتتكاثر على الجانبين حيث يخلو الموقف من سيارات بينما يظل الكشك الخشبى

الأزرق صامداً أمام الإحساس ، فيه شخصان أمامهما بونات السفر
للسيارات التى تأتى إحداها فيجرى العشرات خلفها ، لكن السائق
أحكم الغلق وأقفل الأبواب وسد المنافذ إليه ، وهو يشير بكفه أن لا . ،
لا لماذا ؟ لكل أسماء المدن التى تخرج من أفواه المتلهفين على مقعد
للوجود الجميل فى ليلة السحور الأول عند الأهل فى حضن البيوت
الكبيرة والعائلات الدافئة وتبدو مظاهر رمضان المحتفية فى سرادقات
أمام الموقف ومقاعد كثيرة أمام مقهى وباعة جائلون للبلح الردىء
ومحلات الفواكه كلها تعلن عن بضاعتها بفوانيس وزينة رمضانية ورقية
ومزركشة ولوحات بدائية ، أهلاً رمضان والأغانى نفسها وحيدة فى
الإذاعة تنفرد بالليالى كلها ، رمضان جانا أهلاً رمضان فيها طعم
المناسبات وأغانى محملة بالذكريات وتقليدية المشاعر المسافرة ،
وأصوات تنزل على دماغنا بأغانيها وأناشيدها (تصد قلبى عن التفاعل
معها) تذكرنى بصفحات مخصصة لرمضان والدين فى الصحف المصرية
بكل ما تحمله من معاد مكرر وسخف يومى فى الصور والزركشات
والبدائية الخالية من وهج الصدق ، أخشى هذه الليلة فى موقف أحمد
حلمى لذا فإننى أخلص نفسى من مهامى وأتعجل أشيائى وأسافر قبل
ليلة الرؤية حيث جلوسى مع أهلى وأخوتى أمام المفتى ننتظر ونترقب
ويتوقع البعض أن رمضان غداً ويتبنى آخرون أنه بعد غد ، ولا دليل
واحد لدينا ولا مبرر لانفعالنا فى رغبة تحقق التوقع ، فإذا ما قال المفتى أن
غداً المتمم لشهر شعبان أو أنه أول رمضان قفز الفريق المنتصر من فوق

الأرائك وصفق وسمعنا أصوات تصفيق من الشارع أو ربما من جمهور
الحاضرين أمام المفتى ، أما الفريق المهزوم فيصمت وغالباً ما أكون
منضماً إليه دائماً أريد لرمضان أن يتمهل فى حضوره ليوم واحد ، وتنتشى
فى البيت غدة رمضان ، النوم يتأخر مع غضب موسمى على سهرة
التليفزيون فى هذه الليلة ، وأمى تلح على أخى الصغير أن يدخل للنوم
حتى يتمكن من الإستيقاظ للسحور ويعرف «يأكل» لأجل الصوم .

وأبى يبدأ صلاة التراويح وقراءة القرآن على الأريكة متابعاً بعينه
أحداثنا (الصالة ـ التليفزيون ـ الردهة ـ الشرفة) وأقوم فى أهبة مضى
شهر على هذا النحو إلى الماء لأتوضأ وكلى قلق على قضاء رمضان ،
التوفيق بين التواجد الدائم للإفطار مع عائلتى حيث طبخ ساخن
وحنان دافىء «ولمة» ذات بركة ومودة وروح ، بينما هذه الإقامة فى القاهرة
وعمل البغيض ينغص ويشتت ذهنى وأبحث عن تقسيم الأسبوع
وتوزيع الليالى والسفر لستين كيلو متر والسهر فى رمضان وتتقلب
الأفكار فى رأسى مثل قطع بطاطس تقلبها أمى فى صينية ذات زيت
متأجج على نار الشعلة الكبيرة أتحرق وأتوضأ ، وأبدأ بالبقرة بينما يظلل
البيت الهدوء وتنعس العيون ويمشطنى الليل من مقاومتى فأنفرد وحيداً
على السرير فى غرفتى ، هذا أفدح ما فى رمضان المقيم ، تفرغ لنفسى
وتفكر فى أمرى وسرد لتاريخى ومناقشة لعمرى ومحاكمة لأحاسيسى
ومقاضاة لمشاعرى ، أسأل نفسى وأعاقبها عن عمر فيم أفنيته ؟ وعن
حب فيم قضيته وعن رجل متى أحسه ؟ وعن إمرأة لم أعشقها ؟ وعن

سفر كيف كان وعن قاهرة كيف قهرت ؟ الشارع له «ونسه» وألفته فى ليل رمضان ، حركة مطمئنة وأصوات حوارات وتمضية وقت وصوت المسحراتى الخشن بطبلة ذات ضجة وخطوات منتظمة (ولاغناء على الإطلاق) ينادى على سكان الشارع ويدخل صوته غرفنا وآذاننا بالأسم ، يدعوهم لليقظة كلهم ، فيما عدا منزلنا فهو ينادى على منزل أخوالى بأسمائهم تفصيلاً فهم أكثر شهرة لديه ، وكان أبى قبل خمس رمضانات سبقت يبتسم حين يذكر أسمه أو حين نذكر أنه فعل حيث أن أبى لا يسهر ولكننى إذ أسهر الآن لا أسمعه أيضاً ينادينا ، اللحظات الوحيدة التى يغنى فيها المسحراتى تكون فى الليالى الأخيرة من رمضان حين ينشرخ صوته ويتهدج أداؤه .

ـ لا أوحشنا الله منك يا شهر الصيام .

وأشعر كآبة رحيل رمضان تحط على صدرى آتلف مع الأشياء والأماكن والشخوص وأحبهم وحين يرحلون أو أرحل عنهم أموت ألماً وأعتصر جراحاً لكن لا الأشياء والأماكن ولا الشخوص تعير ألمى أو تعزى فى حزنى .

وحين تغفل عيونى أخيراً ، أجده (أبى) يوقظنى إلى السحور ينادينا همساً ويحرك كفه فوق الغطاء على قدمى ، فأصحو منتبهاً ، أزحف حتى حافة السرير وأهبط إلى الأرض ، تعود الصالة إلى الأضواء الزاهرة «والطبلية» على السجادة وضعتها أمى ثم تدخل إلى المطبخ بينما يدخل أبى إلى غرفة أخواتى ، فيناديهن فى عتمة الغرفة التى بددها ضوء الصالة

فيتثاقلن ويمضغن النداء ويواصلن النوم ثم يعود أبى إلى الصالة وهو يردد أسماءهن مُعلياً نبرة صوته متجهاً نحو المذياع يحرك مؤشره إلى القرآن الكريم بتلاوة الفجر من الإذاعة العامة ، التى تنقل شعائر الفجر من مسجد سيدنا الحسين ، فيقول أبى «رباه سنسمع صوت الشيخ الجميل ثانية اللهم أدمها علينا نعمة وتوفنا مسلمين» .

تعود أمى حاملة طبق الفول الرئيسى حين أخرج من الحمام فتهتف بى أن أوقظ أخواتى مرة أخرى وترفع من نبرة صوتها إلى مقدمات الغضب وهو تطرد آثار النوم الذى تبدد منذ سمعت جرس الباب يضغط عليه خالى يوقظنا للسحور فتذهب كل مداعبات النوم من عيونها وتصحو إلى المطبخ حيث تُخرج الفول من «الدمامسة» المشتعلة طول الليل ثم تتحرك نحو «الخيار» فتغسله وتقطعه ، وتخرج «القشطة» من الثلاجة وترفع غطاء العيش الطرى المخبوز فى منزلنا وتبلل العيش الناشف حتى يرق ويجف ، ثم تقشر البيض المسلوق وتضعه فى السمن بطبق واسع ومعه ملعقة من يريد منا أن يهرس نصيبه ، وحين تنقل كل الأطباق إلى «الطبلية» تكون أخواتى قد استيقظن ، واحدة منهن تعيد إحكام غطاء الرأس وثانية تبدأ فى قضم لقمة ، وثالثة نصف نائمة (فى كل مرة نذكرها ماذا فعلت على السحور أمس) أما أخى الصغير فيكون السهر قد أضعف شهيته وخفض قابليته للطعام وربما يستعيد كل هذا وربما لا (لكن فى الغالب يستعيد) وتنهض أمى لإحضار الشاى وتصبه لنا فى أنصاف أكواب لأننا لا نكمله أبداً ، فيما عدا أبى الذى يواصل

يقظته حتى آذان الفجر يحاور أمى ويحتسيان الشاى وقبل الآذان يأتى أبى لنا فيسقينا شربة ماء بعد أن نفيق لوهلة ، ثم يعود إلى أمى (تسلمت هذه المهمة برمتها بعد سفره) ثم يتعجلنا لأذان الفجر ، ونصْحو مرة أخرى وأكون قد فشلت فى استعادة النوم وننتظر نهاية الآذان ثم يبدأ كل منا صلاة النفل ـ خير من الدنيا وما فيها ـ ثم ننتهى جميعاً وننتظر أبى ، أنا بجوار أبى وأمى وأخواتى خلفنا (وأخى نائم لايصل الصبح بتدليل قديم من أبى) يستغرق أبى فى صلاته ونحن نتململ باحثين عن دفء السرير، وطىء الصلاة ، يسلم أبى فأقف وأؤذن لإقامة الصلاة ، ويدعو أبى دعاء الأذان ثم يكبر ونضع أكفنا فوق صرتنا ، بينما تجذب أمى أختاً لى كى يستوى الصف ، فى الليالى القديمة كان أخوالى يأتون لنا للصلاة خلف أبى ، وكنا أحياناً لانستطيع أن نكتم ضحكاتنا من وقار أحدهم المصطنع ، فيضج الخال الآخر بهمهمة نعلم منها أنه يكتم ضحكة فيزغزغ فينا حواس الضحك ونقاوم مستميتين خائفين من أبى (فى الحقيقة) ولكن عندما لايستطيع الخال مقاومة كف الآخر التى تجذب بنطاله كى يسكت ، ينطلق فى الضحك فنضحك كلنا ونسلم خارجين من الصلاة وأحياناً يلقى أحدنا بنفسه فوق الأريكة خشية السقوط من الضحك ، ونقعد نشير إلى خالى الواقف للصلاة ونحن نغلق أفواهنا بأصبعنا حتى لا يضحك هو الآخر ، بينما أبى يواصل الصلاة بصوت رزين مستقيم خاشع وغاضب ، أمى تلحق به بعد تماسك سريع ، ونبدأ جميعاً فى العودة إليه بعد هدأة الضحك واكتشاف حرج الموقف فنعود

واحداً وراء الآخر وعندها يحس أحد الأخوال أنه سيرتد إلى الضحك فيتصنع الجد و«يكح» ويضع كفه على فمه ماسحاً بلل الوضوء ويكون أبى قد ركع أوسجد ونحن خلفه وحين ينتهى من الصلاة نسلم وراءه منتظرين غضبه لكنه ينظر إلينا فى عتب ويقول متوجهاً بكلامه للكبار (الذين لم نكن نحن وقتها) .

ـ أهذا يصح فيعتذرون ويلقون بتبعة هذا الضحك كل على الآخر ثم يضحكون ثانية ونحن معهم أما أبى فوحيداً يبتسم .

منذ سفر أبى وأنا أؤم أخواتى وأمى فى صلاة الفجر بذات طقوسها وعند سفرى واقامتى أياماً فى القاهرة ، تؤم أمى الصلاة ، وأحياناً تبقى وحدها ، بعد سفر أختى الأخرى وكسل الثانية ونوم الأخيرة ـ تبقى وحدها تصلى الفجر وتبتهل على نفس «البطانية» التى نفرشها دائماً بدلاً من سجادات الصلاة الصغيرة ، . وأمى دائماً بعد الصلاة وحين تدخل جميعاً إلى النوم (اعتذر له واحاول استرضاءه كى يرحم قلقى ويأتى) ، تجلس فى الصالة حيث الأضواء قد أخفقت ، والصمت قد حل ، والمذياع قد أغلقناه ، وتدعو الله بصوت عال بعد صلاة شكر يومية وتنادى الله أن يوفقنا وتذكرنا واحداً واحداً وتدعو لنا كلا على انفراد بدعوات حارة ، وتبتل خاشع ، وصوت مرتجف عال وتوسل مخلص ، وكنت دائماً أسمعها ـ آخر من ينام أنا ـ وقد دمعت حين ذكرى والحت عند الدعاء لى وكنت دائماً أسأل الله أن يتقبل بينما أكون قد غصت فى همومى الخاصة التى تخرج بأسنانها وتكشط كل شىء ـ أمامها ـ حين

الانفراد بنفسى قبل نوم أو وسط فراغ أو عند تحليق فى كتاب ، فتنبسط أحزانى وأسئلتى ولومى لنفسى وكرهى لروحى وضعفى أمام الناس ، فكلما حضرت إلى سريرى واستدفأت بغرفتى وتوضأت بماء منزلنا وسمعت حرارة أمى ، كلما استوحشنى البعد واستحضرت الوجوه التى أحبها هناك فى القاهرة ، فإذا هى حسب التوقيت الرسمى لمدينتهم ، كأنى أحبهم ولا يحبوننى ، كأنى أذوب فى هواهم ولا يريدوننى رغم أنهم - جميعاً - حولى وبرغم أصحابى وأصدقائى ونجاحى والخطابات القادمة من البلاد البعيدة ، تخبرنى عن الأحوال وتسألنى أحوالى وتستغرب حزنى وتندهش لطوله وعرضه وامتداده ، وتستفسر عن كل مقومات سعادتى التى امتلكها ولا أعمل بها أولها ، أجلس على المائدة بجانب أمى ، أدعية الإذاعة الدينية ، الطعام المفروش بالمائدة ، أطباق الأرز - بوصاية خاصة لى - أسئلة عن زيادة السكر فى العصير ، كمية الملح فى الشوربة شجار بسيط حول مايريده بعضنا من أجزاء الدجاج أو البط ، وحين يكون أبى غائباً يظهر فى رنين الهاتف قوياً سريعاً قبيل الإفطار فنسمعه قادماً من البلاد البعيدة يهنىء برمضان ويسأل عن الصحة والأحوال وفى كل مرة نسأله :

- متى تفطر يا أبى ؟ ياه بعدنا بساعة ؟ أخبار الجو هناك ؟ من يعمل لكم الإفطار ؟ تفطر مع من يا أبى ؟

شرب الماء ، قعود المائدة ، تذكر الأب ، تساؤل حول افطارى غداً أفى القاهرة أم هنا ؟ ، تعليق على مسلسل اذاعى ، تسرع أخت إلى الوضوء

قبل رفع أطباق الطعام ، تشاجر آخر بسيط حول هروبها من حمله ، جوابها من بعيد أنها جلبته وعليهم رفعه ، وقرقة الماء من الحمامين ، اصطكاك الأطباق على المائدة وفى المطبخ ، وشيش نسمعه عند اقترابنا من المطبخ للشاى يحاول الغليان ، السجاجيد تفرش لصلاة المغرب ، فى غرفة أخرى ، غطاءات الرأس على الأرائك ، أعكف على طبق الكنافة ، تقليب فى محطات المذياع ، إختلاط صوت الإذاعة بصورة التليفزيون يُفتح الآن ، أكواب الشاى فى بخارها الأخير على الأرض ، تمتد الأيادى لها تضمها هنا على مائدة صغيرة أو فى زاوية ما ، ضحكات تنطلق من الأفواه صادقة حول برنامج مرح فى التليفزيون ، آذان العشاء ، كان أبى يقف مرتدياً جلبابه الأنيق ويتأمل التليفزيون فى عرضه لفقرة ما حتى يأتى الآذان بشارته المعلومة فيلقى التحية ويمضى للصلاة بينما ألحق به بعد دقائق أكون قد خرجت من الحمام ، علىّ ماء الوضوء وأعبث تحت السرير باحثاً عن الحذاء .

المسجد كبير متسع رحب متلألأ ، الأضواء ، مشرق الجوانب ، أخضر الفُرش ، مزدحم عن آخره ، فى تكالب الناس وتدافع المصلين يلحقون بالإمام قبل الركوع ، كان المسجد ممتلئاً إلى نهايته ، يبدأ هكذا فى اليوم الأول من رمضان ثم يتقلص الزحام وتنسحب الصفوف حتى يفرغ المسجد إلا من صفوف قليلة تخط حظ الناس من الحماس والصبر .

وتؤشر لرحيل رمضان وكان أبى دائماً فى الصفوف الأولى وكنت دائماً أخرج بعد صلاة التراويح قبيل الوتر ، فى حين يستكمل هو الصلوات

كلها ويصحب أصدقاءه ورفاقه مشياً فى حوارات العمل ودعابات الكبار وفتيا السياسة وآفة الخلاف العربى ، بينما أعود إلى البيت وحيداً إلى تليفزيون ، كتاب ، كتابة ، هاتف إلى القاهرة ، إجابات باردة تلقانى، تخذل ترقبى للصوت الآخر ، تهزم دقات قلبى وتلم خسارات الدنيا الى كتفى الأيسر ، بسبر جنباً الى جنب .

تطلب أمى ألا أرحل غداً فنحن مدعوون عند خالتى ، الدعوات سمة رمضان فى العائلة حين كان والدى موجوداً فى رمضان ، فالكل يدعو الكل ، وهرج الأطفال وتزاحم الأنفاس والضحكات ونوادر الأعوام الماضية وإلحاحنا على خالى الكبير بأن يدعونا فيقول بلهجته الحاسمة الضاحكة ـ طبعاً بإذن الله انتم مدعوون عندى يوم ٣١ رمضان وعليكم خير .. نضحك ونتهمه بالبخل ، فيجيب :

ـ بخل ، يا خبر أبيض ، ربنا موسعها علينا والفلوس كتير أنا لا أعرف ماذا أفعل بها يا شيخ .

ثم يضيف مستدركاً .

ـ معك ثلاثة جنيه سلف ..

ويمد كفه حتى صدرك ثم ينغزه فيك مبتسماً أنا بخيل ، طيب أمك أسمها إيه ؟!

أطباق مكرونة متخمة ، أرز مبعثر تحت الأطباق ، إمتداد الملاعق وتفاوض حول من يقوم بتوزيع قطع الدجاج ، والطلب من أمى أن تقوم

بالمهمة ، فتمتنع ، وتدعو ابن عمتى صاحب الخبرة المدهشة فى الطعام، فيقدمها عليه ، أنه لا يصح وهى موجودة ، فتتفرغ للمهمة فى حرص وسؤال دائم عن فلان هل أخذ ؟ فلانه هل نسيتك ؟ وتركز على الأطفال الصغار ، من فوق حجر أمه ، أو بجوار أبيه ، أو من يتسلق كتف جدته، أو من يتصنع الوقار ويتابع توزيع الأنصبة خفية ؟ أو من يتشاجران معاً على مكان فارغ بجوار أمهما ، أو من يرعاه أبوه بشكل خاص وتدليل مفرط ، ثم تمسك بالصنية الفارغة فى يدها وقد ظهرت قطرات مرق على يدها .

هل أخذ الجميع ؟

فتهتف جدتى

ـ وأنت يا ابنتى أين نصيبك ؟

فترفع أمى فى سرعة لتهدئة قلق الجدة قطعة صغيرة .

ـ أهو يا أمى .

فتغضب جدتى بعينها لأن أمى قصرت فى حق نفسها .

ـ طيب هل هذا يصح ؟

وتمد يدها إلى قطعة أخرى تعطيها لأمى فترفض ويتحاوران بينما أرفع الملعقة إلى فمى محلقاً فى فراغ نهاية الصالة التى نجلس فيها حيث باب يؤدى إلى الجنينة وحيث صورة قديمة جداً تملأ تاريخ العائلة ، تضم

أفراد العائلة من كل شرق وغرب منذ عشرين عاماً أو يزيد ، جلوساً وقياماً ووجوهاً صغيرة ، فتية وشيوخ وشباباً ، وابتسامات ووقار وتسلقات رؤوس من بين الأذرع وصعود فوق مقاعد للظهور فى الصورة ، تلك التى تمزقت أطراف نسخة منها ، وبقيت أخرى لدينا ، وإذ بى جالساً على ركبة جدتى ومن الناحية الأخرى أختى الكبرى كنت ارتدى بذلة ظهرت بها نفسها فى صورة مستنداً على كتف أمى فوق أريكة ، . تلك الصورة التى أراها أمامى وحول فى ضلعى الأخير الاعوج حين أمشى فى مغربية القاهرة قبيل الأذان ومعى صديق أو رفيق ونبحث عن مكان نفطر فيه ، نتداول ، وإحساس كئيب يتملكنى ، يحيط جروحى بمسمار يسحب أنفاسى إلى الدخان ، القاهرة فى هدوء لايعانى منه إلا الغرباء ، أشم رائحة الطعام المطبوخ على سلالم بيت ، أو فى ردهة إلى مكتب، أو من نافذة واطئة ، أتوقف شاعراً برودة ورعدة ويأخذنى الحنين إلى بيتى، وإلى دار برائحة الطعام وتوزيع الأطباق على المائدة وأخى يطبخ فى الفراغ بالضجيج وأمى تنادى على أختى وهاتف يرن وتلاوة قرآن المذياع والشارع الفارغ ولحظة الوقوف فى انتظار فروق التوقيت ، والأطفال يُكبرون لتعجل الأذان فى الشرفة .. والجلسة مابعد الإفطار أمام التليفزيون ..

ادخل إلى محل عميق الاتساع مزدحم بالوجوه الغربية والأجنبية والمصرية فاطرة رمضان ، هؤلاء الذين بات التعامل معهم عادياً والنظر إليهم طبيعياً ، منذ غروبى عن المدينة الصغيرة لم يعد فاطر رمضان

خاسر دينه ربما لازال هناك دين ولكن لايوجد إلا الخسارة فقط .

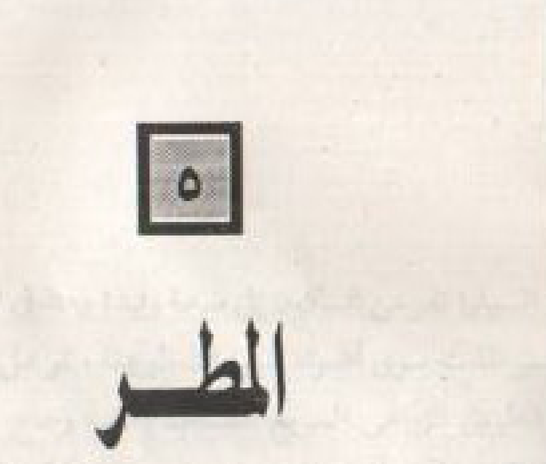
يخسرنى الفرح ..

يخسرنى منذ أمد ، منذ تعلقت فرحتى بالآخرين ، حين انسلت روحى من جروحى وتركت ضمادتها لدى وجوه لم تعد كما كانت ، لم تعد أصلاً، وحين أعود إلى المدينة يخسرنى الفرح ..

حين أستكين للهزيمة وللوحدة وتذكرنى وجوه الأهل الدافئة بوجوه أخرى باردة ثلجاً ، رائحة البيت تجذبنى إلى تذكر رائحة تركتها فى القاهرة رائحة احتراق لحم على نار ، وحين أقف عند حديقة منزلنا الصغيرة ، اقفز السلالم المؤدية إليها فتفزع العصافير المحتشدة على الشجر فتقفز هاربة ، تاركة زهر الليمون على الأرض وأوراق الجوافة الجافة البنية ، حبات الجوافة الرطبة ، ووردة حمراء مهتزة على عودها ، وحبة برتقال صغيرة مغطاة بالورق الأخضر ، وأحس لحظة المغيب القادمة ، وتدفئنى فى الشعور بالرحيل ، أكره الرحيل حتى ولو كانت الشمس فى مغرب رمضان ، . أكاد أبكى هذا البكاء المر الذى أرتوت به جفونى فى ليلة القدر ، حين قال الإمام أنها ليلة تُفتح فيها أبواب السماء ، فحاولت الدخول إليها ، البيت كله وشوشة تلاوة وأصوات تكبيرات متداخلة والأفراد كلهم يصلون فى الغرف ، حتى غرفة الإستقبال ، وأبى فى الصالة والتليفزيون مغلق تماماً ، وأمى فى غرفة النوم وأخواتى متوزعات وأنا فوق سجادة صلاة خصتها أمى لى حين أخرجت سجادة

صلاة جديدة لما تعذر الاكتفاء بما هو قديم ، وكان الدعاء الذى حفظناه جميعاً «اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عنى» كانت السيدة عائشة رضى الله عنها قد سمعت الرسول ﷺ يردده فى ليلة القدر التى نلتمسها فى العشر الأواخر من رمضان والتى رآها حسب حكايات العائلة القديمة خال أمى عندما خرج إلى السطح فى البلدة فانكشف عنه بصره فكان حديداً ، وطلب من الله فتحقق .. هل أنجب بعد توقف؟ هل اغتنى بعد فقر ؟ لا أذكر لكنه رأى ليلة القدر ، ومن ثم فنحن يمكن أن نرى ليلة القدر ، هكذا كنت أقول لأبى وهو يحاول اقناعى أن مسألة الرؤية متعذرة وأن القضية انكشاف روحى ومغفرة إلهية ولكننى دعوت وبكيت وانسابت دموعى أنهاراً ساخنة وختمت تلاوة القرآن كله ليلتها ولم أر ليلة القدر .

ولم أجرب المحاولة مرة أخرى .



المطر

القطار الخاطئ، يصل المحطة

السيارة تفر من السكون إلى سرعة وئيدة وهنة فى ليل مطير حالك لا يكسر ظلمته سوى أضواء السيارات الوجلة ، تمر على أرض أسفلتية زلقة فى الطريق الزراعى السريع الضباب يغلف زجاج النوافذ والمسّاحتان تحاولان فى جهد آلى متواضع إزاحة حبات المطر المتراكمة المتعانقة فى غلظة حاجبة فوق زجاج السيارة الأمامى ، تسقط صفوفٌ من المياه المتكتلة على أسفل الزجاج ويبقى مستطيل نظيف من ورائه يبدو الطريق والشجر المعلق فى السماء على الجانبين أهراماً من العتمة وحفيفاً يضيع متلاشياً فى أصوات عجن العجلات للبرك المائية المفروشة بفعل المطر ، وهواء ضارى ينفذ من سنتيمتر وحيد تركه السائق مفتوحاً فى النافذة المجاورة له ، يلسع أنوفنا ويرجف شفاه المسافرين المتقلصين فى ملابسهم وخوفهم .

يعبر السائق سيارة ما من اليمين ثم يسير متمهلاً ثم يلمح خلاء من السيارات والمطر فيدفع السرعة للصعود فيكتشف سيارة على اليمين فيشق طريقه إلى يسارها بجانب الجزيرة الرملية والحجرية المفروشة

بشجر ناحل يتوسط الطريق ، لكن سرعته تخفت وبطء يسيطر على السيارات كلها حتى التوقف ، فيهتز السؤال فى أجسادنا مع تمتمة وارتباك مؤقت ثم تبين مسافة للعبور يجتازها السائق لكننا نلحظ جميعاً سيارتين مصطدمتين فى الجزيرة وأبواباً مفتوحة وأسقفاً محطمة وجثثاً ملقاة ودماء تسيل وأنات حادة تخرط آذاننا لشابين نائمين على أرض المطر الأسفلت ينطقان الأهة محروقة موحلة بالمطر والطين .

سائق السيارة المصطدمة منحشر بين مقعده وعجلة القيادة ، صدره منطبق وعنقه ملتوى ورأسه مدلاة على كتفه وناس متحلقون حوله ينزعون باب السيارة المنطبق ويلقون به إلى الأرض ويدخلون بأيديهم وأذرعهم يرفعون عجلة القيادة عن صدر السائق ومطر متسرب من الواجهة المنكسرة إلى عجلة القيادة إلى رأس السائق المصاب ـ يبلل الدم والماء أيدى المنقذين ـ وتخفت أضواء قادمة من سيارات على الجانبين .

هو المطر ...

تنادينى أختى وهى واقفة على عتبة الشقة تنظر إلى السلالم المؤدية إلى طابق تحتى ، بينما السلم مكشوف للسماء ، له سور صغير رفيع ويطل من الناحية الأخرى على الممر الضيق المؤدى إلى بوابة البيت (بيتنا القديم الذى كنا نسكن إحدى شققه) أسمع صوت أختى بالفرح المدهوش وهى تلح قدومى وتعود برأسها من فتحة الباب إلى الداخل تنتظر تحمسى .

يفتح الباب على ضلفتيه فتنهمر أجنحة الهواء مرفرفة على أجسادنا تحتل موقعنا وصالة البيت من ورائنا ..

ـ انظر هذا مطر غريب علينا لأول مرة فيه ثلج والله ثلج انظر جيداً .. هنا .. لا تتضح أمامى الأشياء والبرد يفك أعضائى ويسلمها للمرض فتهبط الأخت السلالم حتى سلمة رئيسية مستطيلة وتمسك بأصابعها الصغيرة حبات دقيقة من ثلج هش وتصعد وقد بللتها الأمطار واغرقت كتفيها وغطاء رأسها وجوربا ترتديه فى قدميها .

ـ انظر .. هذا هو الثلج ..

هو المطر ..

هبطت من السيارة معى حمولة أحزانى كلها وفوق رأسى المطر والبرد والعتمة ، آثرت ألا أهبط إلى الطريق المختصر بين الحقول المفضى إلى شارعنا فى دقائق حتى لا أعبر ظلمة مخيفة وطمياً مغرقاً فى هذا الليل ، مضيت نحو المزلقان عابراً إشارته التى تطن برنين منتظم وضوء أحمر مدهون بالماء ، وأسير متعجلاً فوق حديد القضبان وحجارته وإلى ميدان المحطة الصغير ، مشبع بالمطر والطين ، تخطه عجلات السيارات فتصنع من الطين المتراكم شوارعاً وأزقة مرتفعة ومنخفضة مستقيمة وملتوية ، تبنى أشكالاً من معمار غريب يفصح عن خرافات للعيون المحدقة ، يفضح رموزاً للعيون الوجلة ، الصمت يركب المدينة والشوارع خاوية فى هدوء قبورى ، لا شىء سوى وشيش المطر الذى يهدأ لحظات ثم يعاود

هجومه الليل على الأرصفة الصغيرة يغطيها ماء يبرق مع بصيص النور المنسكب من مصابيح معلقة على أبواب الحوانيت ثم على الشوارع بطينها المصنوع من تراب ثقيل منهمل وبرك غويطة متسعة تمنع عبور القادمين إلى الأسرة الدفيئة ، أختار أيهم أسلك ، أين أمضى ؟ أبحث عن ممر يمكن تجاوزه ، يستطيع الحذاء أن يفوت فوقه دون الغوص حتى الرسغين فى الماء العكر ، قطعة حجر - مثلاً - موضوعة وسط بركة تسهل قفزها إلى أمن الطين بعد خطر الغرق ، المطر يسرى فى أقمشة الملابس ، أنسجة الثياب جلد الحذاء والحقيبة ، يعبىء كتفى ماء ويتسلل إلى صدرى من فتحة غير محكمة ، ويلف عنقى ويحمر له أنفى مقاومة انفكاك المخاط ، قطر الماء المنهمر ينزل من شعرى الخشن المبلول فوق نظارة عميت عدستها الزجاجية وجعلت المشاهد كلها ممزوجة ببروك الضباب على عيونى .

أكاد أنزلق بجسدى كله وتترنح الحقيبة فى يدى فتلحقها رعشة الكف ، ثبات المحاولة وتماسك البدن فى اللحظات الأخيرة لكن الماء الملوث يغطى جانب البنطال والحذاء .

لمدينتى الصغيرة فى أيام المطر رائحة الصمت ، طعم الانكماش ، حين تغفو الأبنية والبشر وتتقلص الحيوات كلها إلى حركة مكتومة خلف باب وشروع مبكر للنوم تحت غطاء سرير وكمون مطلق للموجودات جميعاً .

اختصر طرقاً نحو شارعنا فتخذلنى الحنكة فالطريق مصيدة للتزحلق

والطين فى طزاجة المطول الأول للمطر ينتظر الأقدام المتعبة وجبن مشروع - وسط المطر والظلام والصمت - أن يكون هذا الخط الطويل الملتوى من الطين ثعباناً أسود فى الظلام ينهب قدمى ويجرنى إلى الموت فى وحل الليالى ، أو ربما تتفكك بحيرات الماء عن أيادى غليظة مكسوة بالطمى والماء المتصبب وعروق نافرة فتشدنى إلى حفر عميق وضحك ملجوم وأصوات مدفونة ونباح كلاب يعزز الخوف بالارتباك فجأة يخرج الرعب المنتظر من ناصية ما .. كلب شريد تهتز بطنه المكسوة بطين نام فوقه وأرجله مغروسة فى وحل يتنقل به فى ماء وبرك والمطر يقطر فوق جسده ووجهه غير مكتمل الملامح فى ارتعاش النظارة على الأنف كأن المثلث لابد له أن يكتمل المطر والظلام والكلاب ، حين جريت إلى أمى كان كل شىء قد استقر فى التاريخ ، مررت من الفرن إلى بيتنا أحمل حقيبة بلاستيكية محملة بدورها بالخبز وحين لامست قدمى شيئاً طرياً ليناً عرفت أنها المأساة كلب ضخم نائم عكرت نومته فنهض مفزوعاً ينبح فى قسوة وعدوت بكل ماقى جسدى من خوف لكنه لحق بى أمسكت حوافره أخيراً ببنطالى وحين أدرك أنه ينتقم منى كنت قد عبرت امتاراً فى قفزة وكان قد تمكن من البنطال فمزقه وأنا أبكى وجيران من الأبواب والنوافذ صرخوا عليه وجروا نحوه ، لكنى صرت الآن وحيداً أمامه ، فى المطر والليل ، وكانت عيونه مثبتة - هكذا شعرت - عند حقيبتى وكفى .

غاصت أقدامى فى برك المياه ووحل الطين وتخبط الحجارة وغموض

الأمكنة وعتمة مسيطرة على مسافات متباينة ، رأسى تأخذ زاوية حادة نحو الكلب ، ولمشى يزداد والمطر يسكن لثوان والبلل يغرقنى ويثقل حركتى وخطوات الكلب منتظمة دقيقة تئن فوق الطين وتثير ماء فى اصطدامها بالبرك وتخط آثارها على الشارع الموحل ، على يمينى سور لبيت كبير ومدق ضيق ناحل خال من الماء أسير عليه فتنهرنى انحناءاته ولكن الكلب يسير جانبى موازياً لى فوق الماء المفروش على الأرض .

هل اقترب بيتنا ؟

لا أحد فى الشوارع ؟

(كأن كل شىء انسحب للمواجهة الوحيدة بينكما) .

على غفلة من إدراكى ، هلعت ، كانت حلقة من كلاب على ذات الوحل والطمى والماء والتشرد قد تجمعت مع الكلب الأول وساروا جميعاً جوارى ، خلفى ، بموازاتى وأنا مرعوب حتى توقف الرئة مدفوع بعار الهزيمة ، مجلل بمرارة شرسة تعطل تفكيرى عن أية محاولة للفكاك ..

الأقدام ثقلت بالطين على الطين ، ترنمت خطواتها بالمطر على الماء ، وتكاثرت وتكتلت والتصقت أجسادها واختلطت سيقانها واهتزت ذيولها فى وعيد رعديد وفكرت لوهلة أن أقف لكننى لم أجرؤ ظننت أن الموت جوار بيتنا أكثر رحمة من الموت بعيداً عنه وأن ملائكة مرسلين من الله سوف يأتون عند بدنى ، فيتدافعون ، ملائكة الفرح مع ملائكة الحزن أيهم يحملنى إلى نهايتى ، حتى يفصل بينهما حل وسط فيعدون المسافة

بينى وبين بيتى فإن كانت أقرب من مسافتى إلى ناحية الشارع أذهب إلى موت فرح وهدأة جراح .

عبرت الناحية والتفت ثانية فلم يظهر كلب خلفى فاشتعل فى صدرى الهنوء ثم جريت بأقصى مافى قدمى من سرعة ، يلوثنى الطين والماء وأكاد أتعثر وأسقط وأستند على جدران بيوت متشققة بالمطر مبلولة مغسولة يهترىء طلاؤها وتتهاوى قشرته على الأرض مدغدغة تماماً ، مسحوقة فى الماء والطين الذى يكسو أسفلت الشارع وحفره التى صنعتها التطورات الطبيعية لكل ماهو مرصوف فى الوطن .

أحس فى انفراد مدهش عرقاً يمتزج مع مطر على جبهتى ووجهى حين ضغطت على جرس البوابة فدق صوته ، أعرفه رنيناً نبيلاً فى الصالة وحين تحركت أقدام خلف الباب تسأل من ؟ أجبت فى زهو ، خرجت أمى ملفوفة فى دثارات شتوية ثقيلة وأصابعها تمسك بالمفاتيح ، تتجاوز الأحذية الملوثة بالطين الموضوعة أمام باب الشقة ، تعبر السلالم الصغيرة المؤدية إلى البوابة الخضراء تدوس على آثار المطر على مدخل بيتنا .

ـ حمداً لله على السلامة ..

وحين ظهر وجهها من خلف البوابة واضحاً نقياً محمر الخدود من دفء مصنوع فى الداخل ، ظهرت عند الناصية قافلة الكلاب تجرى فى سرعة سيارات لعبة الأتارى نحوى ، ضغطت أمى على مقبض البوابة فأصدر صوته الأليف ودفعت البوابة وأنا التمس من عين أمى انقاذى

من سعى الكلاب النابحة خلفى ، انزلقت فى حضنها وهى تعيد البوابة
إلى الانغلاق وتسأل ..

ـ يا ساتر ما كل هذه الكلاب .. هل كانت خلفك ؟

كل هذه الكلاب ـ وغيرها ـ كانت خلفى ، لكننى استبيح الصمت
على الهزيمة . أدخل بيتنا ، هذا الشتائى العجيب ، الذى يشارك البرد
علينا فى ريح لانعرف من يتقاضاه ، رائحة المطر تغلف كل جدران
البيت ، أختى تنام ملفوفة فى أغطية أمام التليفزيون وأخرى تجلس على
وسادة مستطيلة أمام مدفأة من الغاز تقليدية الطراز وأنيقة المظهر تشع
دائرة من دفء يصدر من رأس سلكية حمراء تشبه نصف قرص الشمس
فى المغيب ، أخى يضطجع على سجادة فوق الأرض رغم تأنيب أمى
المعتاد ، وأبى فوق الأريكة المقابلة ناعس يرتدى «روب» مخطط أخضر
وحول عنقه كوفية بنية وفوقه غطاء صوفى يكسوه كله وعند التقاء الصدر
بالعنق يضع مذياعاً صغيراً بحجم الكف يصدر أصوات بقايا نشرة
اخبارية أو تحليل ما ويواصل بغناء وكلما حاول أحد أن يغلقه طالما أن
أبى نائم وبما أنهم يتابعون شيئاً فى التليفزيون ، يستيقظ أبى مفاجئاً
ويرفض هذه الفعلة لأنه يتابع البرنامج الإذاعى ، ثم يرفع صوته قليلاً
رداً على ما حدث ثم يستجيب لالحاح أمى أن يبتعد عن البرد وينام فى
غرفته .

عندما أدخل يحتضننى البيت ويحمينى ـ وفى البيت رب يحمى ـ كلهم
تدرعوا من البرد بالثياب الثقيلة ، وحين أخرج من الحمام الساخن ،

أجدهم قد تفرقوا إلى النوم ، ومن بقى يبدأ مرحلة البحث عن المطر ،
فأخى يقف خلف نافذة المنور يتسمع صوت دقاته على الأرض ، فإذا
تواصلت وانتظمت فهذا مطر خفيف ، أما إذا اندفع واشتد ومسح
الصمت تماماً فيلتفت بصوت عال وخطوة بقدميه ولهفة للإخبار بالجديد
المتفرد .

ـ مطر شديد جداً غداً ستكون الشوارع ألعن من اليوم .

أما أختى الأخرى فتحاول التأكد فتذهب إلى الشرفة المطلة على
الجنينة حيث تعرف من اتصال المطر بالشجر ومن اهتزاز الورق الأخضر
من هدير الريح ، كم المطر وكيفه ؟ وتوقع غده ؟

ثم يفتح باب غرفة نوم أبى المطلة على الحديقة تخرج منها أمى .

ـ المطر غزير ، الدنيا غرقت .

يرد أخى .

ـ حلو .. لن أذهب للمدرسة غداً .

فيأتى صوت أبى قوياً دافئاً تملوه بالنوم أيضاً

ـ يا حلاوة ، ما هذه الفوضى .

لكن أمى تستسمحه .

ـ لا أحد يذهب للمدرسة فى يوم مثل هذا ، انت ناظر وتعرف ؟

ـ أولاد أى أحد لايذهبون ، لكن أولادى يعرفون قيمة المدرسة ..

تدفع أختى صدر أخى بكفها .

ـ هل يعجبك ذلك ؟

يضرب قدميه فى الأرض .

ـ لن أذهب الفصل يكون فارغاً وزملائى كلهم يغيبون ، بالذمة هل يعرف أحد التحرك فى شوارع غرفاته وكلها طين .

حين يهبط المطر من سماء مدينتنا إلى أرضها ، تتجمد أشياء كثيرة فيها إذا كان غزيراً متواصلاً ، ليلة واحدة من المطر كافية وكفيلة بسقوط البلد تحت طائلة العجز ، وكنا لا نذهب إلى المدارس ، فمعظم التلاميذ والطلبة يأتون من قرى صغيرة تبعد عدة كليوات عن المدينة فى سيارات لأحد عشر راكباً أو دراجات فقيرة ورغم افتتاح مدارس كثيرة فى القرى إلا أن الثانوية العامة لم تزل تحتفظ بوفود القرى لها ، كما أن البعض كان يفضل مدارس المدينة .

ولما كان المطر ثقيلاً ، كانت المدارس تخف تماماً وتخفت جداً ، فلا صفوف ولا طابور صباح ، لأنه لا أحد يقيم صفين ، الأفنية ملأى بالماء والأحذية الملوثة دمرت النظافة والماء يفرض دوائر على أسقف الفصول ويبلل المقاعد والأدراج ومدرسون كثيرون لا يأتون من القرى أيضاً أو يتكاسلون فى المدينة ، فنضج فى فوضى منظمة ومعروفة تُستثمر فى العبث والانتظار والندم على عدم مشاهدة فيلم الصباح فى التليفزيون أو مذاكرة درس ما ، وكان والدى يعود من المدرسة فخوراً دائماً بأن أقل نسبة غياب

فى مدارس المركز كله كانت فى مدرسته لحرص المدرسين والطلبة على الحضور والانتظام رغم أى ظرف صعب ، وأنها المدرسة الوحيدة التى أتمت يومها الدراسى دون اختصار أو إبتسار .

لكن أكثر ما يثير الطغينة ضد المطر هو إنقطاع التيار الكهربائى فى ليالى يشتد فيها هطوله حين يتخطف النور من المصابيح ونصاب جميعاً بخيبة أمل ، الظلمة تبددها ابتسامة أبى أو ضحكة أختى ، لكنها تظل ظلمة تمنع عن القراءة والكتابة ومصافحة الوجوه أو الاستسلام للتليفزيون ، تقوم أختى نحو المطبخ تبحث عن عود ثقاب ، يأتى بهوت النور الخافت من هناك تبحث عن لمبة جاز تجاوزناها بعد مرحلة وأحضرنا مصابيح برتينة وتعمل بالغاز وكنا نبذل جهداً فى أحكام اشعالها وحين « تهب » شعلتها فى هذه القماشة البيضاء الملتصقة بها مثل الإصبع أو كمثرى الثريات تضيىء المكان بنور مستمد من ليالى القرى القديمة وسرادقات الأحياء الشعبية تنادى على الأهل أن يشاركوا ، وكان وشيشها جيلاً فوق المكتب ونحن عاكفون على تدارس أو مذاكرة ووهج ما من الدفء ترسله من خلف الزجاج المحيط بالرتينة ، وخضار جسد الكلوب يبرق مع النور المشع منه ، وفى ليلة كهذه سمعنا نفير سيارة تتمهل أمام منزل جدتى واحتكاك عجلات بأرض ومطر على سطح سيارة واقفة وخرجنا لنرى خالى واقفاً مع السائق يعطيه أجرته فاندفعت نحوه بصغر جسدى ونحول بدنى ، كان مرتدياً جاكت يصدر صوتاً يشبه صوت كرمشة ورق شفاف حين تلمسه الأيدى أو تحتك به

الأصابع المرحية المعانقة وكان خالى قد أطلق له شارباً دقيقاً بنياً فوق
شفتيه لأول مرة ، تذوقت دفء صدره الذى عاد لى بعد غياب شهور
قضاها ـ وهو الطالب الجامعى ـ عاملاً فى إحدى الورش فى الأردن وحين
جاءنا فى البيت كان ضوء الكلوب ينسكب على زاوية من وجهه أحاول
أن آلفها ، غربة علقت بخده ، وحزن ما ركب فوق شفتيه (فيما بعد وحين
يمر أحد عشر عاماً سيقول لى خالى أنه لم يدخر فى هذه الغربة إلا مائة
وخمسين جنيهاً مصرياً فقط لاغير تعذب هناك ظاننا أن شيئاً ما قد يحدث
وهو طالب غرير يريد الإدخار لزواج من يحبها ، وتزوجها ، دون أن تسهم
غربة هذه الشهور ولا المائة وخمسون جنيهاً) .

لكننا استبدلنا هذا الكلوب فى شتاءات تلت بلمبات الجاز ثم جئنا
إلى أقصى تطورات الإضاءة فى ليالى النور المنطفىء ، هذا المصباح الذى
يشحن بالكهرباء وحين تنقطع ينير لنا ويرسل أشعته المدخرة المشحونة .

وكنا أحياناً نستغنى عن هذه الإضاءة كلها ونجلس كسالى فى الصالة
نلعب ألعاباً شفاهية أو نلقى نكتاً قديمة أو يحضرنا أحد الأخوال
فيضاحكنا ويتلو الذكريات بعضها معاد ونجلجل ونستدفىء بالمرح
وكان ابن عمتنا يحكى عن خوفى من لعبة قديمة كان يداعبنى بها صغيراً
حين يلعب بأصابعه أمام نور المصباح فيرسل ظلالاً لأصابعه على
الحائط فأظنها شيئاً مخيفاً يسير عليه فأخاف وارتج ويضحك معنا وهو
يعيد ما كان يقوله لى كى أهدأ بالا وأعود من خوفى .

هو المطر .

حين عدت من عند صديق لأبى سافر له وكان المطر عنيفاً غليظاً لم
تعرفه المدينة (فى كل مرة تقول ان المدينة لم تعرف مطراً كهذا وفى كل مرة
تعرف المدينة مطراً أكثر من هذا) أوقفت سيارة نصف نقل كانت تعبر
المزلقان وطلبت منه أن يوصلنى معه إلى شارعنا ، الطلب غريب فى مدينة
صغيرة لكنه عادى فى مطر كثيف يعطل السير ويبطىء السرعة ويشن
ضجيجا للسيارة العابرة وودعت الرجل وصافحته شاكراً وحين دخلت
إلى البوابة أخبرنى أخى أن أمى ذهبت لتوصل أختى إلى محطة القطار
لتركب إلى الاسكندرية ، فانطلقت تحت مطر غزير عنيد ألبسنى الماء
وكسانى ولمحتهما تسيران فى مدق بين الحقول نحو المحطة ، كان كل
شىء غارقاً فى ضباب وضوء نحيل وشمس مختفية وزروع مهتزة من ثقل
المطر واشتداد الهواء وكانت الأرض ملوثة طيناً وماء وكنا نعجن بأقدامنا
بعد فقدان الأمل فى الحفاظ على آخر بقايا النظافة فى الأحذية والثياب
وناديتهما فلم يسمعانى ، أمى تحمل حقيبة أختى الخفيفة وفى يدها مظلة
نسائية أخرجتها من الصوان بعد لأى من البحث والغضب ، ترفعها فوق
رأس أختى لتغطيها تماماً بينما تكشف جزءاً من رأس أمى للمطر
الساحق . يهبط فوق كتف معطفها الأسود أختى، تحمل حقيبة ملابسها
وأشياء الكلية الثقيلة ، لم يسمعانى فتعجلت السير حتى أوشكت على
التزحلق وقد اختفت تفاصيل كثيرة من عدسات النظارة فكنت أمسحها
بكفى وأصابعى حتى وصلت إليهما قبل التماس رصيف المحطة ضغطت
على كتف أمى فانتبهت وسألت فى حنان عاتب .

ـ ما الذى أتى بك يا حبيبى ، كنت قعدت ترتاح من مشوارك .

ضاحكت أختى ونحن غرقى فى حزن السفر الأسبوعى السخيف وزاد المطر من بلائه وسخفه صعدنا للرصيف واحتمينا بالمظلات الأسمنتية وحين تأخر القطار قلقنا وأعلنت أختى أن لديها محاضرة هامة جداً (الذى هو السبت فى العادة) ولمحت البرد على خديها حمرة ، وحذاءها يدق على الأرض وأمى جالسة واضعة كفيها على حجرها وأنا أتلفت وصرت مطالباً بجواب عن أسئلة هل يأتى القطار ؟ متى ؟ ماذا نفعل ؟ حال هيئة السكة الحديد فى مصر لماذا لا أكتب عن تأخر القطارات فى مجلتى ؟ وأداعبهم حاكياً مقولة صديق سفر أن الإسم الحقيقى لرمز هيئة السكة س ح م هو سك حير مصر فتنتزع أختى إبتسامة وتهز أمى رأسها وحين يدخل القطار بطيئاً إلى المحطة لا يتوقف وسط اندهاشنا وتقذف أمى حقيبة أختى الثقيلة عند باب عربة ٧ حيث تذكرتها المحجوزة ، يصرخ عامل محطة فينا على الرصيف .

ـ هذا ليس قطار أربعة إلا عشرة .

يستيقظ رجل على صدمة أمى من تورطها بقذف الحقيبة ووسط ارتباكنا والمطر منسى فى هزيمتنا يقذف رجل واقف على باب عربة ٧ بحقيبة أختى فأجرى لها وأجىء بها وتهمس أمى .

ـ الحمد لله .

ويأتى قطار الرابعة فى الخامسة والربع طبعاً وأعود أنا وأمى تحت مظلتها فى المطر تسألنى عن صديق أبى .

وحين يأتى صباح اليوم التالى للمطر تفزعنا حقيقة أن علينا الصعود إلى السطح كى نتزح المياه الراكدة عليه والمعسكرة فى منخفضاته حتى لا تتخلل السقف وتسقط فى البيت قطراً وبللاً .

نصعد أنا وأمى وأخواتى مدكوكين من البرد وضامرين جداً رغم الملابس الثقيلة التى تنكشف الآن عن أرجلنا ، شمرنا حتى ظهرت بطن الساق وأمسكنا بالمساحات ، أدفع الماء عند منخفض وأمى فى مثابرة وإيمان تخرج الماء من فتحة الشرفة على السطح إلى الشارع فنسمع انسكاب الماء بعد ثوان وعلى وجوهنا علامات الجد والصبر والجهد المرهق الذى يثنى ظهورنا ويحنى أعناقنا والسطح كبير متسع والماء غزير لا ينتهى وحين نيأس من دفع الماء نلجأ إلى دوراق المياه البلاستيك نملأها بالماء ثم نسكبه فى إناء أكثر إتساعاً حتى يمتلىء ثم نرفعه من أذنيه إلى حافة السطح فنلقيه على أرض الشارع المبلولة سلفاً .

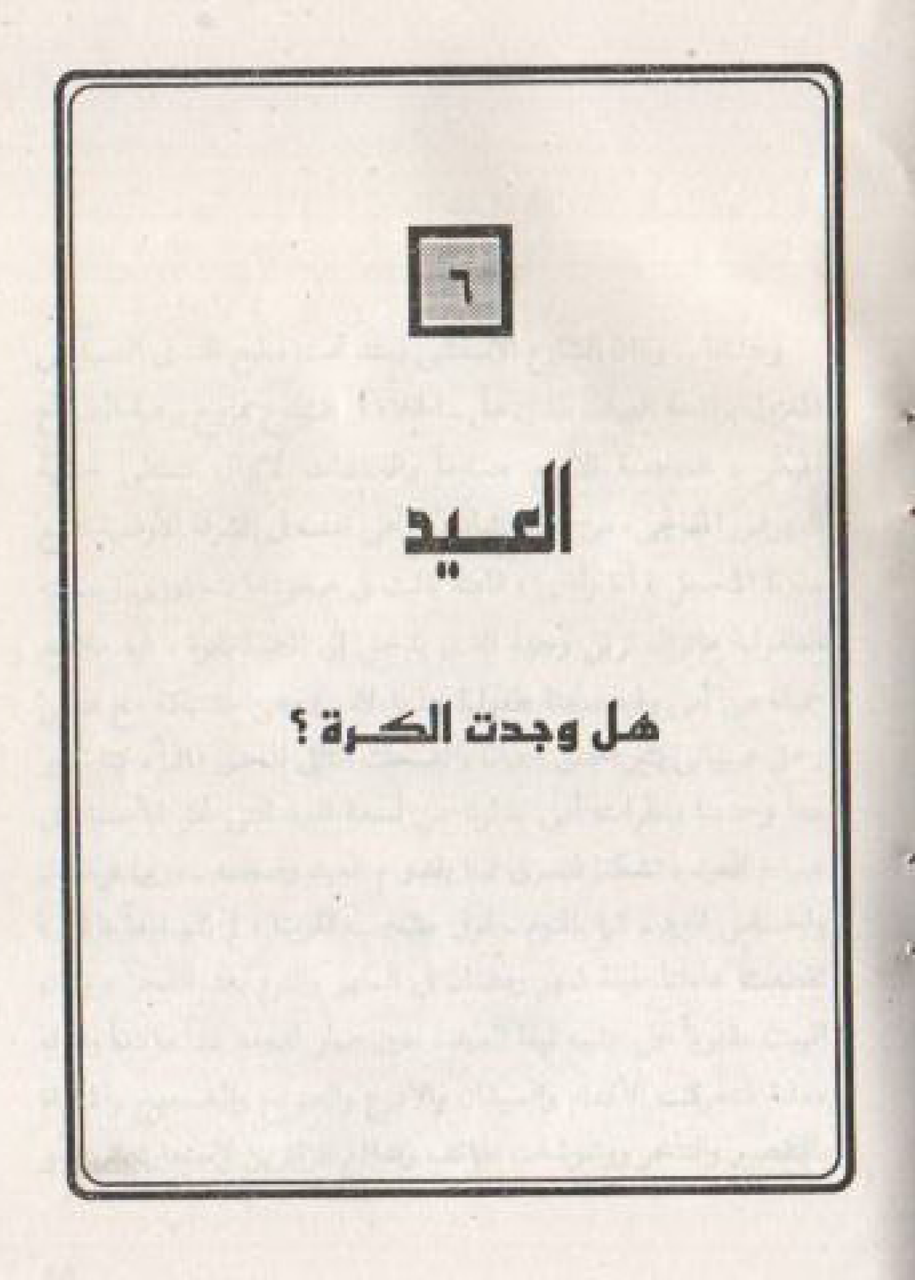
وكانت أخواتى قد كففن نهائياً منذ فترة عن دفع الماء نحو الجنينة محتفظين بتوصية أبى المسافر ألا نلقى ماء من فوق السطح ، حتى لا ينكسر فرع شجرة أو تسقط ثمرة قبل أوانها حين يصطدم الماء المندفع بالخضرة الغضة الحنونة وكنا فقط ننظر من فوق السطح على الأخضر الزاهى فى الجنينة بفعل المطر وقطرات من الماء تبلل الأوراق والفروع والأرض طمى حقيقى والحشائش الصغيرة منكفئة على أوراقها بفعل قوة المطر .

وكانت على السطح المقابل نفس الوجوه المتحدية للمطر فى ابن

عمتى وأبنائه الصغار الذى يمارسون عشق معاونة أبيهم (حين نكون صغاراً فقط) فى دفع الماء عن السطح .

وكنا نتبادل معهم وهم مشمرو الأقدام ممسكوا المساحات ضحكاً ومداعبات تنقلها نسائم الهواء البارد وتدافع الدفء من الصدور إلى الصدور وعلى مساحة الرؤية وحين تتجاوز سطح منزل نرى سطح منزل جدتى المنخفض وقد تبلل تماماً وغرق جداً حين انكشفت أغطية البلاستيك التى وضعوها فى شتاءات سابقة تحمى السقف الطينى الخشبى من الغرق ، تآكلت الأغطية وتعرى السقف المعبأ بأعواد القطن البنية الناشفة ولفائف الحطب ، كان المطر قد أغرق بيت جدتنا تماماً ولجأوا إلى بيتنا حيث اشتكت جدتى من غرق المنزل وسقوط المطر على الأسرة وتآكل طلاء الجدران وإبنة خالى تمسك بأعناقنا بلهفة تحكى كيف أغرق المطر سرير والديها وقد بدا عليهما القلق والتوتر وأصر خالى وزوجته على أن يبيتا ليلتها فى غرفتهما بينما نامت جدتى فى سكون حزين فى غرفة شقيقاتى ، تتكلم عن ضرورة تقوية السقف وتغطية السطح ثم تتحسر على الفراش الذى تبلل والمطبخ الذى غرق والطلاء الذى سقط .

كنا ندفع اناء الماء على حافة السطح ونحن نستعد لإلقائه فى الشارع حين ظهرت فى أول الشارع سيارات مجلس المدينة البلدى تحاول شفط مياه المطر التى صنعت بحيرة كبيرة عميقة منعت العابرين من المرور فى الشارع وكان جرار يكحط الطين من فوق الأرض الأسفلتية وهمستُ إلى أمى غداً يمكن أن أسافر للقاهرة .



وحدانا .. وكان الشارع الأسفلتى يمتد تحت سفح الندى الصباحى المغزول برائحة العيد ـ الذى هلّ ـ الخلاء فى الشارع ممزوج برهبة الصباح المبكر ، السادسة الاربع صباحاً والكائنات لاتزال تتمطى خشية النهوض المفاجىء من أسرة الثبات ، وأمى تقف فى الشرفة الأرضية تتابع سيرنا المتعجل ، أنا وأخى ، قامته باتت فى صعودها لتجاوزى وبسمته الطفولية ماتزال تزين وجهه الذى يدخل إلى الصبا بقوة ، فيه ملامح جميلة من أمى وفيه سمة طفولية عذبة لاسيما وهى مشتبكة مع طيش وحمق صبيانى يثير الحنق أحياناً والضحك التالى للحنق دائماً ، كنا نسير معاً وحدينا ونظرات أمى تدثرنا من لسعة البرد التى تخز الأجساد فى صباح العيد ، تشكنا فتسرى فينا بقدو م العيد وضجته ـ وربما فرحته ـ واحساس البرد ـ كما بالنوم ـ فوق مشجب قلوبنا ، لم ننم نوماً بالمرة ، تقطعت عادتنا طيلة شهر رمضان فى السهر والنوم بعد الفجر ، وكان البيت مقلوباً على عقبيه ليلة العيد ، حين صار قدومه غداً مؤكداً وفتواه معلنة فتحركت الأقدام والسيقان والأذرع والصراخ والضجيج والمناداة بالتقصير والتأخر ووشوشات الهاتف وتدافع الزائرين لإستعارة شىء أو

السؤال عن أمر وتركبنا عصبية كما تركب المقاعد مائدة الطعام الطويلة حيث تتعرى الأرض من السجاجيد وقطعة الموكيت المستحدثة الزرقاء ، وتوضع الأحذية فوق المائدة تحت أقراص المقاعد في غير ترتيب وترفع الأرائك العارية من الأغطية الظاهرة بنقرات الخيوط فيها وتطريز الأبر فى أعلاها وبقايا أثر سقوط الشاى على بطن الأريكة ، وصوت اندلاق الماء من قطعة الخيش التى تمسح بها أختى فى غرفة مجاورة يصطك مع صوت صراخها على تلويث أقدام أخى لما نظفته والماء القادم متسرباً من تحت باب غرفة ثانية يدل على انشغال أخت أخرى فى العمل الدؤوب وأبى فى غرفة الإستقبال يجلس على الأريكة الكبيرة يضفر الستائر بعد أن غُسلت فى موسمها الرسمى ويشبك مشابكها فى الخشب المزين المعلق فى الأسقف وهو واقف فوق سلم خشبى كبير يستند على الجدار فى ثبات تشك فيه أمى دائماً وأنا أبحث عن مكان يليق بقراءة كتاب أو صحيفة بعد ما تعطلت مشروعات البقاء خارج المنزل وانزوت احتمالات الركون إلى الأصدقاء واحساس واضح بكونى بلا أهمية فى ليلة العيد اللهم إلا شرف عدم تلويث البلاط بعد تنظيفه والماء منهمر من الصنابير فى الحمام أو المطبخ أو فى كليهما واصطدم الأطباق والصحون والأوانى من رف إلى آخر ، وحفاظ أمى على عدم الإقتراب من «حلة الترمس» المكدس فى الماء المملح والغطاء الشفيف يكسو أصابع الكفتة المحمرة الغزيرة الموضوعة فوق آنية كبيرة للطعام .

أغنية ليلة العيد ـ التى آنستنا ـ يطلقها بث التليفزيون فى إلحاح يتمم الشعور بالعيد مع صوت أم كلثوم القادم من أسطوانة مكرورة فوق شريط من الصور القديمة الرتيبة لمظاهر احتفالات مبهمة فى ميادين القاهرة .

وحين تقفز الساعة إلى الواحدة صباحاً فجأة تبدأ نصاعة البيت كله فى الانطلاق ، نظافة متألقة ورائحة عطرة عبقة ، وأغطية جديدة لامعة ذات ملمس بكر فوق الأرائك والمساند والأسرة والأرض مفروشة مزدانة والحمام فى لمعان نقى ينطق بجهد أختى التى أولته اهتمامها والمطبخ منظم مرتب ومائدة الطعام مهندمة ومنظومة بمفرش جديد نظيف والجدران خلت من آثار تراب أو غبار واغتسلت بالصابون والماء ورغوتها المتشرة «والمكرميات» تتدلى من الأسقف بعد غسيلها فلمعت وأبيضت ، واغتسلت الفواكه الصناعية فوق طبق نحاسى أزرق من آثار البيت العتيقة وازدهرت ورود بلاستيكية فى جوف «المكرميات» التى صنعتها أختى على يديها .

وتتداخل الرغبات فى الاستحمام، كلٌ قبل الآخر ، ونسمع من الصالة وشيش الماء وانسكابه ونشم البخار الزاحف فوق المناشف الخارجة على رؤوس الشقيقات وأخى ـ نتحايل عليه للاستحمام مبكراً أو النوم مبكراً فلا يستحم مبكراً ولا ينام مبكراً ـ وسهرة التليفزيون التى غالباً مانستخفها ونشاهد بعضها ـ تبدأ فى ابتسامات مصطنعة تؤدى دورها على أسوأ ما يجب ـ كأنهم على الهواء مباشرة وعشرون ألف ممثل ومطرب

يخرجون على الشاشة فقط ليقولوا لنا كل عام وأنتم طيبون والأمة الإسلامية بخير وأمان وساغنى لكم بمناسبة العيد حاجة جديدة ثم النعاس يستولى على العيون من فرط التعب ولهث الجهد ويتسرب الجميع إلى الأسرة إلاى ، حيث أقضى بقية الليل بحثاً عما يُفعل دون أن يخرب هدوء نفسى ويستحضر حزناً غير دفين كلما عنّت له وحدتى ركبنى ورمانى أرضاً ثم أتى فعله .

نائماً بغير نوم حتى آذان الفجر وقرآنه وهبوب زحام خفيف على الشارع ثم ما إن أنعس حتى توقظنى أصابع أبى لصلاة العيد ، مبتسماً هادئاً مرتدياً جلبابه المكوى الجديد ، ذقنه الحليقة اللامعة ونظرته المشفقة وحنان كفه وتعجله الدفيىء ، ثم بحثه عن تمرة تعطيها له أمى فى خروجها من المطبخ إليه فى هذا الحضور الباكر الأخضر ، مرتديه ثوبها اللائق بالعيد ـ طرزته أختى بعد أن تشاركا فى تصميمه ومداعبة أبى لها وتهنئة بالعيد لخدها .

ـ كل سنة وأنت طيبة .

ثم يقضم التمرة .

ـ اللهم لك صمت وعلى رزقك أفطرت وبك آمنت وعليك توكلت ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر بإذن الله تعالى .

ثم يأكلها متساءلاً كل مرة .

ـ سبحان الله الذى حرم الحلال وحلل الحرام .

ويحثنى على الإسراع حين يصر أخى على مصاحبتنا فنخرج إلى الشارع مبكرين جداً ، يدق أبى جرس ابن العمة ، وأنادى خالاً من وراء باب جدتى الخشبى الأحمر المؤدى إلى مدخل البيت ، أسمع انفتاح بابه الداخلى وخروجه ثم قدوم ابن عمتى بأولاده الصغار متسربلين بجلاليب بيضاء نقية وطلة فرحة مشقشقة وأكفهم فى أصابع أبيهم وظهور خال ثانى مورداً ضحكاته الساهرة والتندر على نوم خال ثالث حتى هذا الوقت واعتلاله المزعوم قبيل صلاة العيد ، يلوح جيراننا عابرين بوابات البيوت فنسلم ونصافح ونهنىء ونخز المسير ونتفرق حلقات متتابعة وأبى يقود تهليلاً خفيضاً يتابع تهليلات وتكبيرات المساجد المتلألأة فى السماء الصغيرة .

الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً ، وكنت أحب جداً الشارع الأسفلتى الطويل المؤدى إلى المسجد فى نهايته ، يلوح ناس فى هرولة نحو المسجد وحث لخطى الآخرين وظهور من منحنيات إلى الشارع الرئيسى وطلّ من نوافذ وسلامٌ من بعيد واقترابٌ لتهنئة ورائحةٌ زكية مغموسة فى الكلمات .

ـ وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون .

ثم نغمات أسطورية احتفالية تنظم تكبيرنا حين نصير جمعاً فى المسجد الكبير المكتظ بالأبيض تماماً بجلاليب للمصلين وتدافع

الأطفال وتحلق الإمام وصحبه حول ميكرفون المسجد يهتفون فى أغنية عشق إلهية .

ـ اللهم صل على سيدنا محمد ، وعلى آل سيدنا محمد ، وعلى أصحاب سيدنا محمد وعلى أنصار سيدنا محمد ، وعلى أزواج سيدنا محمد وعلى ذرية (نسرع فى الكلمات وندمج أحرفها) محمد وسلم تسليماً كثيراً .

ـ الله أكبر ، الله أكبر ، ولله الحمد ، الله أكبر لا إله إلا الله .

حين صحوت علمت أننا تأخرنا وأن بعض الأخوال رحل إلى القرية وأن ابن عمتى وأولاده سبقونا مع صاحب له وانطلقت أنا وأخى إلى الشارع وحدنا وكانت نساء مرتديات ثياب الحداد الأسود حاملات أسبتة وأوعية ينطلقن نحو المقابر وكان أخى يسألنى :

ـ لماذا يفعلون ذلك يا أخويا ؟

أحب طعم كلمة (أخويا) منه لكننى لا أحرى جواباً ، ناسياً تكرار التكبيرات مع صوت المصلين القادم من المسجد البعيد .

الهدوء الرؤوف فى البيت كله يُضمخ صباح العيد حين نعود محملين بجميع الصحف اليومية ـ تكون البنات قد صحين ، يقبلن أبى ويدخلن إلى زهزهة العيد الفَرِح ، المذياع فى برامجه الخفيفة وأغانى قديمة محببة ، وأمى مع أخت لى فى المطبخ يلقين قطع الكبدة فى السمن ويقطعن الجبن وتعد واحدة صحناً كبيراً من السلطة وتنادى أمى على أخرى كى تُخرج الخبز الذى انتهين من خبزه الليلة الفائتة «فى الفرن داخل الجنينة»

وأنا وأبى نجلس فى الشرفة نتصفح الجرائد وأهتم ـ جداً ـ بصفحة ممتلئة بملصقات الأفلام السينمائية وإعلاناتها بينما يتابعنى أخى فى حرص وأتذكر هذا اليوم الذى ذهبت فيه مع ثلة من الرفاق إلى عاصمة قريبة من مدينتنا نشاهد فيها برنامج أفلام ثلاثة فى دار عرض ضجت بالصخب تُطلقه حناجر وضحكات وحركات ومشاجرات مئات الشباب صغار السن يملأون المقاعد كلها وكان الفيلم بعيداً على الشاشة بينما الصيحات تقهر كل محاولة للمتابعة وأقدام تستند على ظهور المقاعد التى نجلس عليها والسجائر خرجت من جيوب وقمصان الجميع يدخنون فى لهفة وشبق ووحشية ويلقون بالأعقاب فى كل مكان منتهزين خروجهم من حزام الرقابة العائلية وزخم توافر قروش العيدية وكانت هناك بنات مع اخوانهن فى خوف من هذه الثورة الجنسية التى تقتحم دار العرض حين يُقَبل بطل بطلته ، أو تظهر ساق هنا أو هناك ، أو ساعة تجعل الجماهير غولاً من التصفيق والصياح وكنت أخشى على صحبة البنات بوجوههن البريئة المفزوعة وضاعت كل صلة لى بالفيلم وتعجلت خروجنا ، ذلك ما حدث لى وحيداً أيضاً فى دار عرض فى يوم من أيام العيد اضطررت فيه للتواجد بالقاهرة لعمل بالمجلة وحين وجدت فراغاً فى الوقت يحتاج إلى ملئه كانت دار العرض الكبيرة الضخمة تضع صورة نجم الفيلم هائلة الحجم وتزاحمتُ مع الجمهور ظناً أنه فقط الجمهور ، ولكن لحظة دخولى تمنيت انسحابى فى ذات الدقيقة التى أشار لى عامل السينما بمصباحه الصغير إلى مقعد ـ أى

مقعد خال - كنت أهم بالرجوع فقد كانت المقاعد حافلة بالغوغاء الذين أطاحوا بكل شيء ، الهدوء والنظافة والحياء والفيلم بطبيعة الحال وكان إذا ما أتى النجم بحركة للضحك ضجوا بالضحك عشر دقائق دون أن يسمعوا ما يتلوه من كلمات أو حوادث ، وإذا ما ضرب واحداً بعنف مستحب لديهم انهالوا بالتصفيق الحاد الذى لاينقطع بظهور مشاهد أخرى أو توقف صفع البطل للممثلين وكانت هذه المرة - بنات كثيرات - فى مقاعد ملتصقة - لا يبدون أخوة وقد اشتبكت أصابع وتحركت أيدى وتداخلت أصوات الجالسين يسبون وينقدون ويلعنون ولم أكن أخشى سوى على نفسى .

ناداني أخى من أذنى .

- سأذهب لمشاهدة فيلم اليوم .

صرخت عليه حاداً .

- لا يمكن .

صوت أمى تستدعينا للإفطار - بينما جاء والدى من الجنينة فى يده الصحيفة مفرودة عند صفحة مقال سياسى .

أشعر خدلاً فى جسمى وخدراً فى بدنى من قلة النوم وغياب راحة البدن وكنت أحس فى كل جزء من لحمى دبيب النمل يجرى فيه ويغدق فى سعيه داخلى ، أحاول أن أختلس لحظة للوثوب نحو النوم ، ولكن التحديق فى كفيل بالتراجع اخرج مع والدى للشارع بعد مازارتنا الأخوال

وبعض الجيران ننهض من غرفة الجلوس جميعاً إلى الشارع فى صحبة متماسكة متباسمة حيث نزور الجيران نبدأ بالمنزل المقابل ، البوابة الصغيرة والسلالم المؤدية إلى باب الشقة ، الصالة الضيقة وإرتباك قطع الحلوى فى علبة معدنية وابتسامات متبادلة وكلام فى التحية مع وجوه مألوفة ثم خروج إلى منزل صغير واطىء تحت أسفلت الشارع حيث جارة طيبة كانت تبيع البرتقال والطماطم تعيش مع أمها وابنتها ويحلق المرض والفقر والخجل عندها شقيق يزورها فى الصباح ، يستقبلون زياراتنا بحب شديد وقطع حلوى متواضعة فقيرة وشكر جزيل وإلحاح بطول الزيارة ثم كثير من الأرائك وغرف الجلوس والمقاعد الخشبية المبطنة القطيفة وقطع الحلوى ودوائر الكحك والبتى فور والسكر المبدور وأطباق الفول السودانى والترمس ، ترفض الإقتراب من التحيات حيث انتفخت البطون بمياه غازية وحلوى فُرضت علينا جميعاً قسراً ويودعنا الجيران حتى عتبات البيوت ونسير مستكملين الرحلة ورائحة العيد تجل وتزدان بالماء الخفيف على شوارع متربة أخذ غبارها وتمضى بنا المسافات وحين يسرى فينا إحساس مُضى الوقت وقضاء الواجب تبدأ الانصرافات والسلام وتبادل التهنئة وتقلص أعضاء الصحبة .

الجنينة الآن مستعدة تماما ، نظفها عامل نظافة الشارع نفحته امى ثلاثة جنيهات بالأمس واشرع وجودها كله للعيد ، الأرض نظيفة كُنست كل الأوراق الصفراء وبقايا الصحف وأعواد أقفاص وثمرات معطوبة

قديمة وهُذبت الأشجار وأخليت من ذوائبها واغتسلت الأوراق الخضراء برش من خرطوم ينهمر بالماء كالمطر ، فيسقط الغبار القديم والتراب الملون للهواء .

فرشت أمى سجادة قديمة على الأرض بين شجرتى الجوافة والليمون فبانت رقعة حمراء وسط حديقة صغيرة محاطة بالجدران العالية ، ورفع خالى التليفزيون أمامى وحملناه سوياً حتى المائدة الصغيرة الموضوعة إلى جانب الشجرة ثم مددنا السلك الطويل من الشرفة المطلة على الجنينة حتى جهاز التليفزيون ، بينما نبهنا إلى عدم المساس بالزروع ، جاءت جدتى وتربعت على مسند قطنى فوق السجادة ترتدى جلباباً جديداً قماشه يلمع وتتحسسه بكفيها سعيدة مزهوة بينما كان أبى يروى المربعات من الزروع الخضراء ويمسك بالمصحف بيمينه والتليفزيون بدأ بث برامج العيد وهذا الغناء الموسمى الذى تطلقه مطربة ممثلة ترحب بقدوم العيد .

ينادى أخواتى أبى من فوق السلالم المؤدى للجنينة ، يضحك مدركاً سر النداء الأليف فى لهجة تمثيلية - لا تعنى بفهم الآخرين بأنها كذلك - يفهمنا أبى فيطلب من أمى حافظة النقود من جيب حلته الخضراء (وهى رصاصية لكن والدى يتمتع بأكثر الأمراض خفة ظل ومثاراً للابتسام والحيرة معاً «عمى الألوان») فإذا بأمى لا تسأله عن حقيقة لونها بل تتجه إلى جيب السترة وتفتحه دون أن تغلق زر السترة تلك الحركة التى يعرف منها والدى فوراً أن أمى فتحت حافظته فيسأل واثقاً .

- هل أخذت نقوداً من المحفظة ؟

فتجيبه أمى تواً سواء من المطبخ أو الردهة أو من فوق السرير .

- نعم أخذت عشرة جنيه لأجل اللحمة .

وأمى لا تتذكر أبداً إغلاق زر السترة حتى لايكتشف والدى سريعاً تحرك حافظته وفراغها من مال ما ، فأمى لا تهتم بإكتشافه لأنها تخبره فقط تتخير موعد ذلك بدقة ، حين بسمة أو مداعبة ، أو ضحك عال صاخب أمام موقف عائلى يتزعمه خالى الضاحك دائماً (يعتبر هذا حسداً ثم لا يهمه) حيث أن النبى محمد (ص) يظهر له فى المنام - الرؤيا ويخبره رضاه عنه فنضحك منه .

- كيف يرى وحده النبى بدلاً من المرة عشراً بينما لا يصلى الجمعة أحياناً ، فيشيح بوجهه شفقة علينا من الجهل بالرضا الربانى الخاص به تحديداً فى العائلة كلها ويمسح صدره موضع القلب بكفه ويقول المهم هنا نظيفة وطاهر ومرتاح ، حين يصل الأمر إلى تبادل الاتهامات الدينية اللينة المرحة يقفز خالى على الأرض ويأتى بأفعال رجال السيرك إياها حيث ينقلب على رأسه ثم ظهره ثم يستقيم واقفاً فجأة أمام ذقن أبى فيضحك جداً .

- ستظل طول عمرك مهرجاً .

تضيف أمى .

- أصبح لديه بدل العيل ثلاثة ومع ذلك ولايهمه شىء هنا - أحياناً

تتسحب الكلمات حتى يصل إلى جنيهات أخذت من الحافظة أو تذكير
بأنها طلبت من أبى نقوداً تكفى شراء حاجيات من السوق أو أجرة درس
شهرى لأختى أو أخى أو كليهما يهز أبى رأسه متمتماً موافقاً .. ويستكمل
قراءة الصحيفة .

تقدم أمى له الحافظة من النافذة المطلة على الحديقة حيث يقف تحتها
ماداً يديه فيهبط اخواتى يقودهن أخى نحوه فى لهفة العيدية الأولى يمد
أبى أصابعه داخل الحافظة ويمنحنا العيدية بينما يستنكر أخى أنها لم تزد
من العيد السابق بينما تداعب أختى الوسطى أبى طالبة من أن يرفع
المبلغ قليلاً حيث أنها كبرت .

كففت منذ سنوات الجامعة عن الحصول على العيدية من أبى حيث
أصبحت صاحب دخل شهرى من عمل بالصحافة ، الأمر الذى
جعلنى - مبكراً - أقوم بدفع العيدية إلى اخواتى أو بعض أبناء العائلة
زعماً منى أننى رجل واقتناعاً منهم أننى كذلك .

الشمس لم ترفع رموشها عن أشعة دافئة مثل صوت هديل الحمام فى
الحوائط اللينة تمرغ صوتها فى أوراق الشجر الأخضر المغسول وزوايا
الجدران وأطراف السجاد المفروشة وتلقى بظلال الشجر وأفرعه
المتشابكة والمنطلقة على شاشة التليفزيون حيث انضمت عمتى إلى
جدتى وجلسن على السجادة وتتابع العيون - دهشة - متتاليات البرامج .

ويكون الوجود كله قد اندلع بالحركة المسترية باندفاع أطفال العائلة

مطلقى السراح نحو كل شىء يخص الوجود فى هذا الصباح ، خالتى
حضرت وزوج خالتى بإبتسامته الأميرة المهذبة يمسك بكف إبنه الصغير
محمد الذى لايكفه عن محاولات التملص والانضمام إلى أشقائه الثلاثة
الذين عاثوا فى الهواء بأصابعهم وأقدامهم وعيونهم وحركة أجسادهم
وأصواتهم ينجح فى الاقتراب من أخيه أكبر سناً - طارق - يعود إلى
الخلف خطوات ثم يرفع قدمه اليمنى فى أقصى ارتفاع لها مقلداً لاعبى
الكاراتيه مطلقاً صيحاته التى يريد لها أن تخرق الأرض فتثير ضحكنا
فيغتاظ يمد ذراعه فى قسوة وحدة مبذول فيها جهد ليس هينا ثم يندفع
نحونا فيسقط متزحلقاً على الأرض فنضج بالضحك فيشاركنا فيه بريئاً
بينما أخوه الأصغر محمد أقصر أطفال العائلة رغم سنه يشب نحونا
ويدور فينا لكماً وتقتيلاً ثم يعود جارياً إلى الخلف ممسكاً بحبة بمب فى
كفه يطبق عليها قبضته وينفخ فيها حتى نمل المتابعة فيفرد أصابعه
ويلقى بها بقوة - يعتبرها مفزعة قطعاً - إلى الأرض فتزحف على البلاط
دون أن أى شىء فيخيب تماماً ويشعر بخزى ترتفع درجته مع ارتفاع
ضحكاتنا أما أخته الأكبر - ريهام - فهى مصدر الرعب الحقيقى للبيت
كله خشية أن تموت أمام سيارة أو تحت قطار كما يعتقد الجميع أن نهايتها
ستكون مفزعة لفرط شقاوتها وجولتها الغريبة وعنفها الفظيع فهى أكثر
بنات وأولاد العائلة تعرضاً للإصابات والحوادث ، قطع فى جلد اليد ،
شرخ فى قدم ، جرح فى جبهة الرأس ، لا تتورع إطلاقاً عن الدخول فى
معركة غير متكافئة مع شلة من الأطفال ولا تملك أية قدرة على الخوف ،

فتقفز من شرفة إلى الأرض فى الشارع أو تجرى وراء سيارة أو تصعد فوق سور السطح ، تمسك بأى شىء يصل إلى يدها ابتداء من الكهرباء وانتهاء بالسكاكين تجرى فى أرجاء البيت بمعدل يكفيها للفوز بأية بطولة للسباقات الطويلة ، ترد على أية محاولة للضرب بالضرب والسب بالقذف ، ترفع أطفال العائلة كلها إلى كتفها - قال يعنى حنان - تخلع حذاءها وتعدو حافية فوق الأسفلت أو الأرض الترابية ، تتلقى تأديب والدها بصلد وجبروت يدفع أمها غالباً إلى البكاء لعجزها عن فعل شىء معها ، وصار ارتباطها بأى طفل أو طفلة مثار تعب قلب لأسرة الطفل وكلما ظهرت ملامح الشقاوة على طفلة فى العائلة كلها نطلق عليها لقب تلميذة ريهام زعيمة العصابة ونسأل أنفسنا - وغيرنا - هل يمكن أن تكبر زعيمة العصابة وتصبح فتاة ثم زوجة ماذا سيفعل بها أطفالها ويعود أبى إلى التذكرة بان أمها - خالتى - كانت فى طفولتها بنفس درجة عنفها وشقاوة ابنتها .

يتدافعون جميعاً إلى العيديات ناسين أحياناً إلقاء الشكر فينبهم والدهم لكن التداخل الشديد بين الأطفال الذين جاءوا مع الأخوال والخالات يدع الكل ناسياً لمعالم الكل .

تقترب ابنة خالى «إيثار» نحوى نازعة نفسها من الزحام وهى ترانى احاول إصلاح شاشة التليفزيون وضبط الصورة .

- أنت مالك بالحاجات دى .. أنت مثقف بتاع روايات ، أنهارُ تماماً من الذهول ، هذه الطفلة التى لا تتجاوز أربع سنوات ما الذى أفهمها

أننى « بتاع روايات » وليس لى فى غيرها ، أنادى خالى لأخبره فتمنعنى بكفها الصغير الناحل الذى يمسح صدرها مستعطفة وعيونها الجميلة العسلية وشعرها البنى الذهبى يجعلنى ذائباً رهن إشارتها .

- أوعى تقول أحسن بابا يضربنى .

- أبداً يا قمر سيفرح بك .

تجرى عندما تصدق نحو شقيقها الصغير على حجر أمه فتداعبه ثم تمسكه بقوة تريد تقبيله مندفعة فتمنعها أمها فتصرخ .

- أخى حبيبى تعالى يا حبيبى .

وتضمه إليها كالنساء الكبيرات ثم تنطلق إلى البالونات المنتفخة التى ملأت الصالة والحديقة وأمينة إبنة خالى الآخر تجرى وراءها نحو اللحاق ببالونة كبيرة ، تتمرجح فى الهواء ويتصارعان حولها عند هبوطها إلى حافة السرير حيث يمكن أن تطولها أصابعهما ، تحتدم المعركة حين مشاركة شيماء ابنة خالى الأكبر ولكننى أجرى نحوهن مانعاً مجزرة الصداقة تحت ألسنة البالونات وأدفع البالونة عالياً إلى الهواء فلا تطولها أى الأصابع الصغيرة اللينة فيضحكن مسرورات كأنها اللعبة فأستمرىء ذلك فأضرب بالبالونة إلى الهواء صاعدة أمام نظراتهن المشتاقة حتى يجرين إلى بقية البالونات غير المنتفخة فيدفعن آباءهم إلى النفخ فوراً بينما تصر «إيثار» على القيام بذلك بنفسها ثم تنفخ ، لكن لا أثر على الإطلاق ، بعض الصفير والرذاذ المنساب من فمها فتزهق وترمى بها أمام أخى .

- شوف مش أنت كبير وعامل راجل .

ينهرها والدها ضاحكاً فترد ،

- يا أخى سيبنى النهاردة العيد .

أسألها :

- ماذا تعنى يا إيثار ؟

تجيب صاخبة وقد التفت حولها عيون العائلة ،

- كل شوية عيب يا «إيثار» ، عيب يا إيثار ، هوه أنا معرفش أعمل حاجة خالص ، شوفوا حد تانى تتحكموا فيه .

فنضحك مهتزين من مفاجأة التمرد الطفولى .

يغوص البيت بالأطفال ، تدافعهم وتكالبهم ، سقوطهم على الأرض ثم صعودهم المفاجىء ، قيامهم السريع ، لهثهم المتدفق ، صراخهم المختلط ضحكاتهم المجلجلة ، عراكهم الصغير بينهم كان أحمد إبن خالتى مكتئباً بقامته القصيرة وسمرته العسلية وعيونه الواسعة المحفوفة بالدموع ، جلس على مسند الأريكة دافساً رأسه فى القماش دون أن يتحرك وكانت عيديته ذات الأوراق النقدية الجديدة حادة الأطراف نائمة عند فخذيه الصغيرين ، أحمد كثير الإكتئاب دامع العينين دوماً ، حتى أننا بتنا نتعامل معه على كونه فناناً والتمسنا عند والده «ابن عمتنا» أن يجد له متنفساً لإبراز فنه ، إنه يبكى ليالى طويلة ووسط حيرة الأم

والعائلة ثم نفهم من أخيه الأكبر حسام سبب بكائه فإحدى زميلاته بالفصل قد تغيبت لمرض ألم بها ، فافتقدها أحمد ، وصار يبكى لأجلها حتى أن دموعه انقطعت بعد عودتها - محمودة - إلى مقعدها فأستقرت عندها عيونه ونبضات قلبه ودقة مشاعره ، كما أنه أحياناً يصحو من النوم يعانى غلظة الهواء على أنفاسه ، وثقل الحياة وهمومها - كيف لا يعرف ؟ - المهم أنه يبوح بقرفه من الدنيا والملكوت ويسأل - وهو صاحب السنوات الخمسة - عن معنى الحياة ؟ لذا كان طبيعياً أن تقترب منه أختى وتلتصق بجسده النحيل وتسأله مداعبة عن سر آله وامتقاع لونه وسكوت حركته ، ثم تمكث طويلاً فى استجوابه وتمضى وقتاً فى استنطاقه دون فائدة ، لكن عند لحظة بعينها تنفلت فى العائلة المشكلة الكبرى فأحمد مكتئب لوجود أمينة بنت عمته وخاله (..) مرحها وجريها وقفزها كلها أشياء تثير لديه الحزن والوجع .

- لماذا يا أحمد ؟

- أصلها شتمتنى .

وتسرى فينا ضحكات عنيفة تهز وجود الهواء حولنا ، لولا أن أحمد ينهمر فى بكاء كثيف .

- يعنى أنت يا أحمد لم تشتمها أيضاً ؟

وتستنزف هذه القضية أختى تماماً وتجرى هنا وهناك وتزعق وتستجوب وتتهم وتدين أحمد وتعاقب أمينة ووسط هرج العيد وخروج

ودخول واندفاع وثبات ومشكلات صغيرة ، مناوشات هنا وهناك ، نلمح حسام فى معركة حامية مع عبد العظيم ، حيث يرفع حسام المسدس الأسود وهو واقف وراء حائط الباب بينما يحتمى عبد العظيم خلف الحائط المؤدى إلى ردهة المطبخ ، وبينما يظهر حسام سريعاً ويطلق رصاصته ، ويخرج عبد العظيم فى جدية أفلام الغرب الأمريكى ويضرب بمسدسه الذى تعوزه قوة الصوت فيخرج عبد العظيم صوت طلقات الرصاص من فمه ليكمل المشهد لكن مسدساً آخر يظهر مع محمود الصغير الذى يحسم المعركة كلها ، فمسدسه يطلق بالفعل سهماً بلاستيكياً يلتصق بالحائط أو يؤذى الجسد فيخشى كلاهما من طيشه وضحكته المرتجة وهو يخوض بينهما بجسده الصغير الذى لا يصل إلى ركبتهم إلا بالعافية ونسمع نحيب بكاء من الخارج ، مندفعاً نحونا ، تجرى الأمهات راكضات لنكتشف أنها ضحية من ضحايا ريهام قد جاءت لتشكوها لنا ، نفهم الموقف ونبحث عنها فيجرى نصف الأطفال للخارج تشفياً فيها وللبحث عنها ، لكن حسام تسرقه أغنية قادمة من الجنينة فيقف على المائدة مطلقاً لصوته العنان فى صوته حلاوة ورنين مما يجعلنا نحبه لكنه يستمر هذا الإعجاب أسوأ استثمار حين يصرخ ويزعق بصوته كأنه يغنى ، فيحول صوته إلى آلة مزعجة ، نطلب منه أن يكف ، ثم نلح عليه ، ثم نهم بضربه ، ووالده يحاول أخيراً أن يوقفه عن الإندماج .

تتوقف سيارة فى الشارع مصدرة صوتاً زاعقاً علامة توقفها المفاجىء

المرتبك نسمع زحفات العجلات على الأسفلت تلتاع أمى تركض للشرفة .

ـ أحسن يكون واحداً من الأولاد .

يدخل أطفال كثار إلينا تتقدمهم «ولاء» بطيبتها وهدوئها البائن ونحافتها المذهلة وشعرها المعقوص فى ذيل الحصان خلف ظهرها .

ـ ريهام كانت قصاد العربية .

ونسمع صوت ريهام صارخاً قادماً من البوابة .

ـ كده يا ولاء ، أنا أهو يا ماما .

تخرج لها أمها تقاوم أن يُغشى عليها .

ـ أنا ما عملتش حاجة والله .

انسحب منسلاً ومتسللاً إلى غرفة نوم داخلية ، على السرير متوسداً تعبى وغيابى عن راحة البدن ، أضع رأسى بين وسادتين ، حتى لا أسمع هذا الصخب الشرس فى الخارج ، ينفتح باب الغرفة فأزعق رافضاً أن يقطع أحد نومى ، يعود الباب للانغلاق وتتسرب نحوى وجوه أحبة سأتصل هاتفياً بهم بعد يقظتى ، أسمع صوتهم وبحة العيد فى حلوقهم وغيابهم عنى أيام الأجازات السابقة للعيد وبعده ، لكن غرفة خالية تثبت فيها حبال متينة بين بعرض الغرفة واشتبكت فيها ملاءتان كأنهما ستارة مسرح تظهر لى ، وقد رأيت نفسى وبصحبة أختى الكبرى

والوسطى ، فى غربتنا البعيدة ، قامات قصيرة ومداعبات أمهات أجلسن حولهن أصدقاء الغربة وأطفال المصريين من زملاء أبى وأصدقائه وجيراننا أتتم الأطفال جميعاً فى انتظار انفراج الستارة عنى ، دعوتهم يوم العيد إلى حفل أقيمه فى منزلنا أمثل مسرحية وأقول شعراً وأرتدى - مع بعض أخوتى ورفاقى - ملابس تنكر نقدم فقرات للعب .

كنت أقاوم رهبتى وإحساسى بالفشل وضعف خيالى وقلة المعاونة حين خرجت من وراء الستارة أمثل نشيداً ما أو أحكى قصة مدرسية ، ويبدأ الرفاق فى الدعابات الغليظة والمحاولات البديهية لإفساد الحفلة ، لكن الذكريات تتناثر وتبتعد ولا أذكر - الآن - سوى وجوهنا خلف الأقنعة الكرتونية تحمل وجوه الشياطين والفرسان وأختى الصغيرة تخاف مرهوبة من هذه الأقنعة .

ثم مسدس ضخم اشتريته بالعيدية واقفاً فى منتصف الشقة ضاغطاً على الزر ، فينطلق شرر من الألوان الحمراء من فوهة المسدس وحين نصعد إلى السطح نلعب الكرة ، تسقط كرتنا بعد حماس زائد للإستحواذ على اللعبة بيننا ، فإذا بالكرة تنطلق فى الفضاء ثم تسقط من بناية ذات ست طوابق نراها فى الهواء تهوى وقلبى يتقلص ويتآكل ويغيب عن الرؤيا . وفى الساحة الخالية أمام البناية يمسك بها أطفال من بلاد الغربة ضاحكين راكضين وأقدامنا ترتج فوق درجات السلالم ، أصابع أمى تداعب كتفى .

- استيقظ يا حبيبى .. أبوك يتكلم

أنهض متعجلاً .

أجرى نحو الهاتف بعيون تائهة من النوم ، فوقها ضباب الغفوة الطويلة .

أمسك السماعة

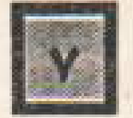
- كل سنة وانت طيب يا أبى .

يأتى الصوت من بعيد ، صاعداً من مستطيل زجاجى لغرفة الإتصال الضيقة فى «ستزال» بعيد موحش .

- كل سنة وأنت طيب كيف حالك ؟

وأنسى - بعد عودة أبى للغربة عقب ثلاثة عشر عاماً كبرنا فيها عمراً وحزناً - أنسى سؤاله .

- هل وجدت الكرة ؟



العــودة

الطريق الــبرى

التصقت أنفى بالزجاج ، سور زجاجى طويل يفصل بين هذا الممر الذى أقف فيه الآن وبين الصالة الضيقة التالية لصالة الوصول ، داعبت أصابعى الضباب المتكون من أنفاسى على الزجاج حاولت كتابة شىء ، حرف ما (نون ربما) ، أو كلمة ، لكنها الرغبة باخت والمشروع تراجع مع يدى المنسحبة إلى جيبى ثم نظراتى الملقاة على الوجوه الجالسة فى الكافيتريا الخلفية ، مساحة من البلاط العارى ثم مائدتين صغيرتين خلفهما حاجز خشبى منقوش كالمشربيات بتشكيل إسلامى فشرى أكواب للشاى على مائدة خالية منزوية عند نافذة تطل على منطقة من ساحة اقلاع الطائرات ، حيث طائرة تبدو صغيرة متوقفة بمقدمتها التى تشبه منقار بومة ، وأخرى تجر عجلاتها على الأرض نشهد حركتها البطيئة المشرعة ، يحرك ابن عمتى الذى يرافقنى فى الجلسة والانتظار أصابعه نحوها .

ـ ها هى طائرة تقلع .

حين يضج أزيزها يضطرب صدرى ويخاصمنى الفرح وتنقر كآبة خاصة بى قلبى ، كأنها طراز معين من الكآبة أعملت فيه تكنولوجيا الأحزان كل طاقاتها فى مصنع مرعب من الآلات والأسلاك والعبوات والمعاطف التى يرتديها المهندسون والأرقام الأفرنجية على الحوائط فى ساعات لضبط الوقت ، وأخرج المصنع لى وحدى صنفاً من الكآبة يليق بطلبى ولا يفك ولا تبدل قطع غياره حتى إذا عاد للمصنع ذاته ، يطلقون عليه أسمى لأن عميله متميز طلب هذا الطراز وعكف على صناعته أعتى مصمميهم دقة وأعلى فنييهم خبرة وأكثر آلاتهم تقنية ، كل هذا حين تطير هذه الكتلة ذات الشكل المسحوب «طائراً معدنياً مقلداً».

ـ أين أنت يا عباس يا بن فرناس .

تراجعت عيونى عن كوبى الشاى الفارغين إلا بقايا أخيرة خفيفة وأستدرت إلى الممر الضيق الذى احتشدت فيه العيون المنتظرة ، كلنا نحمل لهفة على رموشنا ونأتى بها إلى هنا ، الأكتاف متراصة والأقدام متعبة لذا فقد اختار أصحابها الإستناد على بروز أسمنتى مقابل ، يجلسون فوقه فى إتكاء متعب وعيونهم فوق الزجاج أو على ظهور رفاقهم المنتظرين خلف الزجاج ، قد يلمحون إقبال الأب ، وفود العائلة ، يضجون بالفرحة، فينتبه الجالسون ، يقفزون إليهم ويتبادلون مع المقبل العائد تلويحات الأكف ويجرون نحو نهاية الممر ، حيث التقائهم فى المساحة الأمامية لصالة الوصول أمام ساعة الاستعلامات الالكترونية المثبتة تتغير

أرقامها وتتقلب عواصم العرب كلها فى خاناتها ، حتى تستقر عند عاصمة بعينها تأتى منها طائرة تقل قادمين للمنتظرين وتزف فرحاً للقابعين فى شبق إلتقاط دقائق للسعادة واستمهال عادة استحلاء الغربة وتعود الرحيل واعتياد الفقد وائتلاف المسافات البعيدة .

كان أطفال يرتعون فى الممر بين الجالسين تعباً والواقفين تعباً ، أقدام الأطفال تدق البلاط وأصواتهم الصارخة تتداخل فى الفراغ واسئلتهم الملحة لأم واقفة ، هل جاء أبوهم ؟ لجد جالس ، لماذا تأخرت الطائرة ، ثم يعودون للعب ويلعب المنتظرون فى صدورهم ، سلسلة أخت أو مصحف معلق على صدر زوجة أو زر قميص شاب ، ثم تدق أصابع على الزجاج وقد يأخذها تطرف فيهتز الزجاج فى السور كله فتتجه الأنظار عاتبة إلى صاحب الأصابع العصبية ، البعض اتجه نحو شباك زجاجى مطلى ببياض يمنع الرؤى لكن الأيدى قشرت الطلاء فى أيام طويلة لينكشف زجاج النافذة الضيقة المطلة مباشرة على جزء من باب الولوج من صالة الوصول إلى الصالة الصغرى التالية لها التى تتعلق عندها ، وكان الوقوف أمام هذا الشباك القاتل من هذه الكوة نصراً للمثابرين الذين يعطون لأقاربهم الواقفين أمام سور الزجاج أو المتسكعين فى الممر ، يعطون صيحة قدوم المنتظر ، عودة الغائب فتسرى فرحة مزقزقة فى الممر كله وهرج فوضوى مثالى ، أم تنسى طفلها فيعدو خلفها صارخاً فيمسكه خاله ، جد يستيقظ من غفوته على كف يهز

كتفه، فيقوم بينما يكون الجميع قد انطلق خارج الممر، غطاء رأس يسقط مترنحاً من سيدة محجبة ملهوفة، حذاء ينخلع من طفلة ملتاعة للمشهد والعودة.

وحين ينتهى كل ذلك نبدأ فى الرجوع إلى الشباك والسور الزجاجى ننتظر ونرقب ويصرخ آخر لثالث.

ـ بابا أهو .. أهو.

ولا ينتبه الأب العائد، عيونه محدقة فى المساحة الخالية غير متيقن من وجوه كثيرة تحملق فيه من وراء الزجاج وسيارات البضائع المتوقفة أمام باب السوق الحرة وحقيبة الأوراق فى اليد الدافعة للسيارة وحقيبة ملابس تسقط فيتوقف ليعيدها موضعها، ثم تنفلت منه السيارة الصغيرة فى إنحراف عند إستقامة السير نحو الخروج ويعجز عن إعادتها لمسارها المستقيم فيتوقف آخر لمساعدته فيتبسان متعجلين وحين يفيق على خبطات الأكف على سور الزجاج يلمح وجه ابن أو أخ ليضحك ويتوقف بدلاً من استكمال السير إلى الخروج واللقاء بهم، يتجه نحو سور الزجاج ويصافح أكفهم خلفه ثم كأنه وصل إلى محطة قلبه، يتوقف حتى يحثه المنتظرون على الخروج للتلاق واللمس والعناق وحرارة اللقاء ونورت مصر يا بابا.

وحين يضع القلق إبرته فى عروقنا، تبدأ أسئلة تقليدية عتيقة فى الفرار من حلوقنا إلى آذاننا ـ جميعاً ـ معقولة الطائرة لم تصل حتى الآن، هل

يتأخرون إلى هذا الحد فى الجمرك ؟ لكن كثيراً منهم وصل، هل تخلف ركاب آخرون ؟ ثم تستمهل أحد القادمين فى وثوب نحو الخروج، نستفهم منه عن بلد قدم منها وطائرة وصل عليها فنسمع صوته بالكاد يؤكد إنها الطائرة التى ننتظرها نحن، آخر من بقى فى الممر، أفراد تعدهم أصابع اليد الواحدة مرتبكين ومندهشين وقد فرغ الشباك الصغير لنا نلمح فيه فراغ صالة الوصول وخلاء النوافذ الجمركية وصحراء الأسوار الحديدية الصغيرة القصيرة الفاصلة بلا أحد، ساعتان من الانتظار بعدها نشكك فى كل شىء، ربما لم نسمع منه فى الهاتف رقم الرحلة جيداً، ربما أخطأت أختى فى معرفة يوم الوصول بالضبط هل قال الثلاثاء أو الأربعاء ؟ من الذى تلقى مكالمته ؟ هل كتب البيانات فور سماعها ؟ هل أرسل أبى معلومات وصوله فى خطاب بخط يده ؟ طيب لماذا لم يتصل إذا كان قد أجل الرحلة ؟ وعشرات من صفوف النمل تصعد إلى رؤوسنا وتحتل المخ وتعبث فى جلودنا ثم نعرف أن كثيرين تخلفوا على الرحلة لعدم وجود أماكن.

ثم ......

نتصل بالبيت من « السنترال » الصغير القابع فى دور سفلى للمطار أمام المسجد الصغير جوار أفرع البنوك ما، ودورات مياه وأجهزة الهواتف ذات القطع المعدنية معلقة على الأسوار، أدخل إلى السنترال، استبدل قطعاً فضية، أدخل حجرة زجاجية ضيقة ألمح منها موظف «السنترال» ملولاً وايصالات المكالمات ملقاة على الأرض ومنتظرين ـ أيضاً ـ على

مقاعد بلاستيكية حمراء .

وتظهر أرقام هاتفنا على شريط معدنى شفاف فى جهاز الهاتف الرصاصى ويأتى الخط مشغولاً فأكرر المحاولة لكن قطع الفضة تسقط من جوف الهاتف ، فأعيدها ، فتظهر قيمتها على الشريط نفسه ، ثم يعود رقم هاتفنا بكود المحافظة إلى الظهور ، ثم وجه فى الخارج ينتظر فراغى من المحادثة وقلق ما يعزف فى عيونه ... فأستعجل الاتصال مرة ثالثة ادفع بحذائى جداراً مبطناً ثم أحشر قدمى فى زاوية التقاء الجدارين ثم التفت إلى جدار مقابل ، . أضرب الجهاز بأصابعى ، أعيد قراءة رقم الهاتف .. ثم صوت الحرارة طازجاً .. رنين منتظم أكاد أراه فى بيتنا حيث زحام انتظار عودتنا مع أبى من المطار وروائح الطعام وقدوم أقارب وحوارات صاخبة وفرش فى أعلى درجات نظافته للأرائك والأسرة ثم صوت أختى عالياً .

ـ نعم أتصل هنا وقال أنه لم يجد مكاناً فى الطائرة وسيعود فى الطريق البرى .

.... البرى .

عندما عدت كان كل قلب مجهزاً لأبى ، لنفير سيارة بيجو ، واحتكاك بأسفلت وتمهل قبيل توقف وخروج كالسهام إلى الشرفة ، وصراخ مثل صواريخ الأعراس والاحتفالات المنفلتة عند ظهور والدى نازلاً من السيارة ، وجهه مكدود من السفر الشاق وابتسامته لروح مبشرة بجنة موعودة .

وكان صمت البيت واحداً بطيئاً فى إنتظار هذه اللحظة المختطفة من أوراق نتيجة الحائط المستله من الزمن الوئيد الذى يمر على صدورنا ويهشم ما تبقى من حطام الروح .

هذه السيارة المنتظرة ببياضها وشارة أجرتها ومقاعدها الجلدية وسائقها الأسمر هى نفسها التى كانت تنتظرها منذ عشرين عاما على وجه اليقين أمام برج المنوفية وقفنا أبطال صورة جواز السفر ـ أمى وأختى الكبرى والوسطى وأنا فقط صغارا كالفراخ المستدفئين بصدر الأم ننتظر (أكثر الأفعال التى خلقها الله تعالى كآبة وأثقل ما فى القواميس الثقيلة) ومعنا زوجة صديق لوالدى وأولادها تتقاسم السفر الى الغربة حيث ينتظرنا أبى وصديقه عائلتين حميمتين من الإتصال والحب والألفة منذ ظهر اسم كبيريهما فى كشوف الإعارة ، لكن الزمن الذى لا يرحم وأحياناً لايترك رحمة ربنا تنزل ، قطع الأوصال وألقاها فى أكياس بلاستيك، دفنت الغربة هذه الصداقة ومزقت صلة كنا نظن أنها ستبقى طيلة العمر، لم يمر عامان فى الغربة وجيرة شقتين ملتصقتين وتزاور وتصادق ومعاشرة وأكلات مشتركة ومداعبات موحدة وذكريات ملتمة وبركة فى لمة ، عامان وتراكمت خصومات صغيرة ودبت غيرة وانشقت شفاه وصحونا الأطفال لنجدنا ـ الأطفال ـ بعيدين حتى ظننا أنه لا لقيا ، عزل الصديق وعائلته ولم نعد نسمع عنها إلا لماماً عند صدفة عبرت أو حكاية من رفيق مشترك أو تأسف حار من والدى على عشرة العمر

وبعض الحكايا التى نحتفظ بها للدفاع عن أصالتنا فى الحفاظ على الصداقة ثم جاء جيران جدد ورفاق جدد وأصدقاء جدد وقدامى صار الجدد وبعيدين صرنا .

ركبنا السيارة الواحدة وأمى تضعنى جانبها وتسند رأسى عند التقاء صدرها بذراعها تنظر لعينى المغلقة وتطلب منى أن أفتحها ملحة وحزينة وداعية على جار فى الشارع ، كنا نلعب قبيل السفر لعبة «الدبور» حين يلف الخيط على الدبور الخشبى المنتهى بمسمار حديدى ثم يلقيه بأداء معين على الأرض ممسكاً الخيطين حوله بمجرد نزوله إلى الأرض فيدور الدبور ويلف ونحن نتابعه بلهفة وحماس وخاصة بعد فشل مقيم لى - أنا ابن الخامسة - فى اللعبة ، بينما تحلق الأطفال حوله ، يرمى بدبور فإذا به فى عينى ، وينفلت كل شىء ويتبدد الصخب وتنهار الصحبة وأبقى وحيداً باكياً صارخاً ممسكاً بكفى عينى وتتدافع أجساد نحوى تأخذنى إلى أمى وأخوالى وأهل يحيطون بى وترفعنى أيدى إلى كتف وتسير مسرعة لاهثة خادمة قديمة سوداء عجوز ظلت تخدم فى بيتنا سنيناً طويلة ثم تغيب لتعود فجأة عند حاجة ماسة لها ، وكانت إذا التقت بى صدفة تحيينى وتسلم على وتهم بتقبيل كفى وتسأل عن صحتى وتدعو بأن يرزقنى الله عروساً وتقول كلمة « يا سيدى » بأداء حار مخلص غريب، هى التى رفعتنى يومها على كتفها ومضت بى والجميع يجرى خلفها إلى مستشفى بعيد وأربطة ما فى عينى ودموع غزيرة وربنا ستر .

- أليس كذلك يا حبيبى .

تقول أمى عند إخبارها لصديقتها المسافرة بكل الحكاية وتطلب منى مرة عاشرة أن أفتح عينى المغلقة لأنظر الحقول حولنا والسيارات المارقة ولافتات المدن واقترابنا من الاسكندرية ثم إلى حيث أبى .

وأقيم عينى ، أفرج برموشى عن جفونى فإذا نافذة السيارة الخلفية أراها ضبابية غاربة ، وجدتى وأخوالى ورفاق يجرون خلفها وأرفع يدى إليهم فيشفطنى هواء قارى كاسح ويرفعنى إلى العبور من النافذة إليهم فيأخذوننى ويطيرون وأرى السيارة تحتى وحدها تسير وأمى فيها فأبكى ليعودوا بى إليها ، إلى اخوتى وسفر لأبى .

- يعنى لا تريدنا .

يقولون فأبكى عينى الضعيفة وكف أمى تهزنى تعطينى فطيرة غذاء ، وشربة من زجاجة بلاستيكية .

- اشرب يا حبيبى .

وأفيق على صحراء محيطة واتساع رهيب لرمال قاحلة وخضرة نحيلة مقسومة الظهر وسط هذا الفراغ الذى أراه لأول مرة فى حياتى ، ما كنت أظنه أبداً ، هل الحياة تحتوى فراغاً إلى هذا الحد ، لا أهل ولا بيوت ولا زرع ولا شىء ، لا شارع نلعب فيه مع أصدقائى ولا أشجار نجرى تحتها ولاشجرة توت فى بيت أحد الرفاق نقطف ثمراتها السوداء والحمراء وتتلوث أيادينا ونملأ بها طبقاً كبيراً ونأكلها وهى توسخ صدور ملابسنا وأطراف ثيابنا مع لوم أمهاتنا .

ياه أهذه ما يسمونها الصحراء ، لم يعد للسؤال سبب .

ـ ما معنى صحراء يا أمى التى سنسير فيها .

دون حاجة إلى نظرة الأم المتعاطفة والخائفة ، هذه هى الصحراء . يا أنا .

يا أنا .....

كانت الوجوه متسائلة قلقة يحط فى السيارة حزن مثل شرنقة دودة القز يغلف السيارة ، رغم الوصايا ، رغم العنوان المطوى فى حقائبنا ، إلا أن خوفاً عميقاً يتلبس العيون والأفئدة وحذر من تجربة مفاجئة دفعت الأمهات إلى سحب بمجهولة تمشى بهن إلى أرض صحراء ومسافات شاقة حتى خانة الآلاف ، وبعد عن أهل وافتقاد لعزوة ورجل سائق غريب اتفقوا معه فى توكيل سيارات بالقاهرة ، جاء إلينا عند البرج ووضعنا الحقائب واللفائف وركبنا ودعنا الأهل وتصافحت الأيدى وبكت عيون كثيرة ، بكت كل العيون وسارت السيارة تشد مدينتنا من عيوننا وتصدم الأمهات لوحاتٌ معدنية جديدة لأسماء مدن تتجاوز الأسكندرية آخر حدود المعرفة إلى مدينة لا يعرفن فيها أسماء أقارب أو عناوين بالشبه لمعارف ، لكن أمى كانت متماسكة الظاهر ، تعرف معنى سفر لرزق وتدرك أن هناك «بإذن الله » سينتظرنا الوالد الجميل الذى أعد الشقة وجهز الإحتياجات وضبط الأمور وستكون أياماً هانئة رغم بعدنا وسنعود لنبنى بيتاً ونشترى سيارة ونكون مرفهين بما يليق بنا ، وربما كانت

الصديقة جامدة العيون قليلاً إلى حد الجفاف ربما لأن وجهها ينسحب الآن من ذاكرتى إلى النهاية ، أذكر فقط ملمسها لى ولابنها ونحن نهبط من السيارة ونلتحم بصحراء موجعة جداً وخوف بائن يبدأ فى التسرب لكيانى حتى أظن أنه لم يخرج . مبنى صغير خشبى حكومى وسط الصحراء منفرداً يطل على الطريق الأسفلتى الوحيد ، وطلاء أخضر يكسو نصفه وبراميل فارغة أمامه والسائق يخرج منه بجلبابه الأبيض أما أنا ورفيق طفولتى وابن رحلتنا المشتركة نسير خلف المبنى كما قالت الأمهات يخلع كلانا بنطاله أفك أزرة ثلاثة ثم أحرك البنطال والملبس الداخلى الأبيض أعرى مؤخرتى والتصق بالجدار خائفاً وجلاً مرتعشاً من ظهور مفاجىء لأحد ، مرتبكاً يحاول رفيقى طمأنتى ونحن على ذات الوضع والحال ثم تردد وتسرع وارتداء لثيابى ، حين جرى الرفيق ليلحق بأمه والسيارة وتركنى وحيداً إزاء الصحراء وهذا الخفوت المنتظم للنهار والهواء المشاكس المتزايد القادم من كل الجوانب يلقفنى فى قرفصتى وأحس أن أجساداً كثيرة تظهر فى جوانب الصحراء وان ذئب (من أين لى بمعرفة الذئاب) سينطلق من زاوية نحوى أو أن ثعباناً سيتسلقنى فى قعودى ، فألم بعثرتى وأخشى أن التفت وراء المبنى الخشبى فلا أرى السيارة وأبقى وحيداً على الأسفلت مرتجفاً ، لمحتنى أمى قادماً متعجلاً خائفاً .

ـ هل هناك شىء يا ابنى ؟

صعدت إلى السيارة وكانت تعيد أحكام ثيابى على وتربط بنطالى

وتضعنى جانبها وتحضن أختى الصغيرة فى صدرها أما أختى الكبرى فكانت تسأل السائق عما تبقى من المسافات وتطرح أرقاماً من أرقام فهى فى السنة الأولى الإبتدائية ونابغة فتخرج بالمحصلة مئات الكيلوات وتخبرنا أمنا وقد ضيقت عينها وأمعنت نظراتها وانكسرت بسمتها واستفهمت يدها أنه لم يبق إلا القليل ، فإن الكثير قد فات .

السيارة فى صحرائها تمضى ، صوت أزيز هواء يصفعنا من فتحات النوافذ وذرات تراب ونوايا حصى دقيق مهذب يصل إلى جباهنا وشىء كالملح يسرى فى الوجنات ويخط فى الجلد آثاره .

والحكايا تتآكل مع الساعات الطويلة التى تتنفس على قلوبنا دقاتها والنهار ينمحى والضوء ينسحب وثقل الظلام يفتح حويصلات الحزن فى الصدور .

تصعد السيارة تعرجات جبلية ، تبدو منحنياتها خطرة تستلزم دعوة أم للسلامة وإمساك بكف إبن وتردد لهاث على فم واستمهال لسائق أن يهدىء من سرعته والصخور تبدو وحشية فى صعود السيارة إلى هذا الطريق الطويل الضيق الذى يلتوى كلما مررنا فوقه ، على الجانبين صخور مشقوقة وكتل جبلية تكاد تشعر بها تسقط فوق سقف السيارة وعشب صحراوى جاف رغم خضرته الباهتة معشش فى فتحات بين الصخور وأحاول أن أستدير برأسى إلى تحت الجبل فتضع أمى كفها على عينى وتطلب منا ألا ننظر لتحت ، كان تحت ـ هنا ـ بعيداً سحيقاً وكنا

علبة صفيح صغيرة تعبث فوق شارب الموت ، يتغلغل المشهد بأسره فى خلاياى حين أرى السيارة ترتج فوق الجبل ثم تنحرف يميناً وتوشك على الإنهيار يساراً نحو الحافة القريبة والفراغ القاتل ، فقد انخلع إطار السيارة واهتزت السيارة مثل طفل يهوى من فوق درجات سلم إلى أرض مكدساً بالدماء النازفة وشهقات أمى وصراخ السيدة الصديقة وصياحنا واستفهامنا وتشبث أصابع السائق على المقود وقد انهمر عرقه وغزر ارتعاشه وامتقع لونه وصاح بصوت مكتوم حانق بكلمات مبهمة مدموجة .

تعلق إطار السيارة بصخرة وتوقفت السيارة عند مسافة أقل من سنتيمترات على مبعدة من الحافة ، نزل منها السائق وخشيت أمى ملتاعة أن نخرج من الأبواب فتسقط السيارة فى هوة الجبل المغروس فى الصحراء جهماً وشرساً ومنتظراً لقدومنا من المدينة الصغيرة إلى الدفنة الحزينة ، لكن السائق اقترب من نافذة مطلة على جلستنا ونصحنا بالخروج حتى يستطيع استبدال الإطار ولما ظهرت سيارة أخرى بعد دقائق طويلة ممطوطة كان السائق قد عاد إلى مكانه وألقى بيده السلام للعابر وطمئن قلوبنا أنها دقائق قليلة وننتهى من هذا الجبل .

ومن النافذة القريبة وبإنفتاح جفون مكدودة ظننت أنها طيور بيضاء تخرج من الصخور وتطير السماء مرفرفة حتى تعبر الممر الأسفلتى المنشق فى قلب الجبل وتصل إلى حافته ومفزوعاً كنت من سقوطها إلى الموت

لكنها حلقت عالياً ورفرفت فأطبق صوت الأجنحة الصاعدة على الصمت الجهم .

سمعنا كل ما يمكن أن يُسمع فى مذياع السيارة التى كانت يد السائق تديره بين وشوشة مسيطرة إلى وشوشة مؤقتة والصوت يخفت كلما بعدنا واقتربنا من أرض الغربة ولما صدح غناء شادية انحفر فى حبة قلبى بحزن الأغنية ورنينها الرثائى والتفافها على حجرات القلب انبعاثها فى ليالى إلتماس كف تربت على الكتف ودموع تبلل غصة الكآبة العصية وتعصر بكائى ثم تجفف بمنشفة الأحبة ما ارتسم من الألم .

اهتزت رأس أمى وترقرق دمع الصديقة وانفلتت الأغنية إلى ضميرى، ها هو نداء الأغنية البعيدة التى تجر مع تكرارها أمسى وماضى وحزنى .

خدنى معاك يااللى انت مسافر خدنى معاك .

آه آه

عند الحبايب

خدنى معاك عند اللى غايب .

وحياتك يا ماشى

عدى ولا تنساشى

حبيبى راح ولا جاشى

من سنين وأنا صابره

على الحنين مش قادره

ولأجل خاطره مسافره

وحياتك يا جارنا

يا مسافر لقمرنا

من يوم فراقة ديارنا

غابت لبعده القمره

بكيت عليه الشجرة

سألت عليه كم مرة

والله ان قلت أعدى

سبع بحور لأعدى

حتى إن بعدت ما هدى

عدى وخدنى معاك

خدنى لحبيبى هناك

لم تكن الكلمات معروفة لأذنى ولا مفهومة لقلبى لكن شتات الكلمات التم فى الذكرى بمرور سنين وعبور زمن وبقى ذات النبض المرتعش للصوت المغنى وذات الوشوشة العالقة بالغناء من مذياع سيارة مبتعداً عن بث الوطن لأهل الوطن ، وكانت الأغنية تمسح الصحراء

بدموعها ودموع أمى ، وكانت الموسيقى ترش على الأرض ملح الهزائم ، فى الليل سمت الحقيقة أشعة ضئيلة المعنى ترسلها مصابيح السيارة وعتمة غارقة فى الوجود وعيون أطفال تسافر لأول مرة وأمهات حملن خروجهن من الدارإلى النار وسائق بدون إطار سيارة احتياطى وحبيبى راح .. ولا جانى ،غمس السائق قلقه فى حكاية الرجال الذين يهربون عن طريق السلك ويعبرون الحدود دون بطاقات هوية أو جوازات سفر ويحملون هناك حتى تضبطهم إدارة أو تفضحهم مشاجرة وافشاء للسر ، أظننى لم أنس أبداً مشهداً ملحاً لرجال يمسكون بأكفهم معلقين بسلك مثل سلك الكهرباء مفرود بين الأعمدة ويحركون أصابعهم لاهثين وأجسادهم تتدلى مهتزة وجسدهم يمتعض بالعرق وحينها التقينا بقريب لنا هناك من رجال السلك دهشت لقصر قامته وكيف وصل إلى السلك العالى واحترمت فيه قوة عضلاته وصبر إرادته تتداخل صورة السلك لا تريد أن تفنى أبداً فقط معها بعض العقلانية التى تسمح بأن أسلاك الحدود الشائكة كانت المقصودة واحترت لماذا لم أسأل أو أستفسر أى سلك هذا وأى رجال كانوا يصورونهم مشردين مبهمين خائفين أو قاتلين.

كانت البوابة كبيرة خضراء أو صفراء حديدية طويلة جداً مثبتة بين سورين فى الضخامة ذاتها وفوقها لوحة كبيرة ولكنها غير لافتة للنظر ثم .. الصحراء .. فلا شيء تحجزه الجدران التى تنتهى بعد أمتار معدودة ثم تفضى الصحراء ممتدة صفراء صخرية شاسعة والبوابة بحديدها الغليظ

ونقشها القديم وأنين حركتها البطيئة تؤدى وراءها إلى صحراء أخرى أو الصحراء نفسها المقسومة .. هنا الحدود ، هؤلاء الواقفون عند أكشاك صغيرة متناثرة وراء البوابة بنصف كيلو متر تقريباً هم رجال الجمارك وصفوف طويلة من السيارات المزدحمة واقفة فى انتظار التفتيش والعبور والحقائب كثيرة موضوعة فوق الشبكات الحديدية المنصوبة فوق أسطح السيارات ، الحقائب مستقيمة مثبتة مستقرة فوق سيارات ومهتزة مائلة فوق أخرى والسيارات ملتصقة وراء بعضها والأبواب مفتوحة لمزيد من التنفس الحر ، والأطفال بدأوا يتسللون إلى الأرض للعب والأمهات يُخرجن أقدامهن المتعبة لإراحتها على الأسفلت الضيق وبعض الخادمات يحملن أطفالاً صغاراً على أذرعهن ويقضين بهم وقتاً ، والرجال يتحلقون فى دوائر صغيرة غير منتظمة تسقط لحوار وتوقع لسؤال وفتح لجسور عن عناوين الذهاب ومحلات الإقامة وتداخل لأصوات منبعثة من موجات مختلفة ضبط عليها مؤشر مذياع كل سيارة ، ولكنها كلها على إذاعات مصر وغنائها، والسائقون يعرفون بعضهم ويقضون أموراً ويشقون طرقاً ويصافحون ناساً ويسألون عن أسماء ويجيبون عن أسماء ومعظمهم يرتدى جلاليب بيضاء والآخرون يلبسون بدلاً زرقاء .

وحين تتحرك سيارة فى مقدمة الصف تدور أصابع فى مفاتيح ويضع ناس أجسادهم فى سيارات وتغلق أبواب وتصدر السيارات صوتها الأليف الضجيج ويبقى آباء ورجال خارج السيارات لأن المسافة جد قصيرة وسيأخذونها سيراً لكن الأطفال لايفهمون ولايعرفون فينطلق

صراخهم ينادون الأب أو الأخ لمتاعين رغم تهدئة الأم أو ضحك الأخت الكبرى على غباء الصغار فيجرى أب لنافذة إبنه يلمس خده ويداعب أذنه ويطمئنه أنه يسير معه وأنه لن يتركه أبداً . تسرى شائعة فى الصفوف تثبت أنهم يجمعون الطعام كله ما أحضرناه وجلبناه من الوطن ، منعاً للكوليرا ، وتغضب الأمهات وتعلن الزوجات رفضهن المطلق والحاسم والفاصل لتسليم الطعام وتبدأ الحوارات بين النوافذ وينفعلن فيخرجن إلى سيارات أخرى ويقفن أمام النوافذ بأنفسهن ويمسك الأطفال بأطراف ملابسهن .

ـ طيب والأطفال من أين يأكلون . ؟

وتتذمر عائلة أحضرت طعاماً وفيراً ولحوماً كثيرة وأكلات مطبوخة وملوخية ناشفة وبامية معدة يقترح البعض أن يوزع طعامه على بقية السيارات والمسافرين الكثر ليأكلوه بدلاً من الحرق ، لكن الاقتراح غير عملى فالجميع أحضر طعاماً وأولى بهم أكل طعام أمهاتهم وأسرهم من طعام الغرباء ، وتسمع واحدة كلمة حرق فتصعق .

ـ يا نهار أسود .. يحرقون الطعام .

ـ منعاً للكوليرا .. حقهم .

ـ حقهم ، لينكسر حقهم .

أمى حزينة كما خُلق الحزن تاماً فى ليلة القدر (أو قبلها) هذا الطعام الذى استغرقت العائلة كلها فى طبخه إحكام كل المنافذ حتى لا تفسده

الرحلة لأجل الوصول إلى الثلاجة أخيراً ، وهذه الروائح التى انبعثت من بيتنا وحفاوة تجهيز الطعام فى علب وصوان وغلقه بأكياس بلاستيك وورق وتوصيات ذوى الخبرة وهذا الإنتظار الاثير كى يأكل أبى مما صنعنا له ، كل هذا سيضيع ودموع كثيرة شاركت دموع صديقتها وجيران السيارات .

ارتفع لهب فى جانب الصحراء ، لقد بدأوا فعلاً إحراق الطعام وكان الناس ينسلون إلى مكان الحريق فيضعون أكياساً كثيرة كبيرة بجوارها مبتعدة عن المساس بالنار ويعودون انقاذاً للطعام من أيدى رجال الجمارك وعسكر الحراسة ونار الحريق .

وخرجت من سيارة شابة جميلة زاهية ممسكة بعلبة كبيرة من الكرتون بها كحك مغموس بالسكر الناعم وتصل إلى كل سيارة فتمد يدها إليهم بكحكة وتقول :

ـ كحك فرحى لايمكن يتحرق والنبى كلوه .

فتبارك لها النسوة والرجال ويتضاحكن ويطلب منها الأطفال كحكاً إضافياً وتنفرج إبتسامة العروس وهى تشير إلى عريسها الذى يسافر معها فى رحلة ما بعد أيام الزواج الأولى فيأتيها بعلبة أخرى وتضحك جداً حين تحييها إمرأة مسافرة بزغرودة عالية مجلجلة بينما يسأل أحدهم العريس عن قريته ومحافظته واسم مدرسته والمكان الذى سيذهب له فى الغربة .

ارتفع لسان الحريق ولهبه وبدا السائق فى عودته إلى سيارتنا بعد أن أخذ طعامنا وسلمه هناك .

دارت أمى الدمعة .

وغفوت نائماً لا أدرى ماذا حدث بعد سقوط الدمعة على حجر أمى فقط تحركت السيارة ورأينا فى ظلمة جديدة . تطالبنى أمى باليقظة وهرج خجول فى السيارة ، فقد وصلنا إلى أبى ، ساحة معتمة ونور منطفىء وهواء يستيقظ بعد نعاس وأسوار طويلة وأبواب من الحديد والصفيح ضخمة كأنها أبواب مخزن كبير أو مصنع مهجور والسائق يستفهم من أمى العنوان محدداً ، والصديقة تتدخل بإدعاء دقة مؤكدة ويتدحرج الأطفال على المقاعد ويهتز طرب القلوب وإتساع العيون على آخره ، يستنطق الظلمة العمياء وتعبث أضواء السيارة هنا وهناك فلا يرى سوى الأسوار والساحة وصمتاً ملتزماً لكن صيحة أمى تصرخ بالفرحة أصابعها تشير إلى زاوية ما .

ـ أهم فى انتظارنا « نعم .. هم » آه أبوكم يا أولاد ...

وتتوقف السيارة ويجرى نحونا والدى وصديقه وتشتبك الكلمات الحارة ويرفعنى أبى إلى عنقه ويقبلنى جداً ويمسك بأختى فرحاً ، ويداعب الصغيرة فى دفء رائع وبرقة وحب ووحشة يقول لأمى :

ـ حمد الله على السلامة .. نورتم .

كان البواب مع العائلة كلها يحمل الحقائب والأشياء إلى الطابق الرابع حيث شقتنا وكنت الآن وحدى أمسك « جركل » من الماء صاعداً من مدخل البناية إلى درجات السلم مستغرباً المكان ومرتجماً من الأزمنة الجديدة التى تشق الخاصرة وتحجب الأحبة المألوفين (وليس كل مألوف محبوب لكن كل محبوب أليف) دمعتى التى سقطت على درج السلم كانت مفتتح غربة طويلة لم تنته حين صرت أمام باب شقة ظننته بابنا ولجت فاندهشت من صمت الشقة وهدوء الغرف المغلقة وكنت قد تركتها صخبة وحركة وصياحاً ووجوهاً أعرفها ، سرت فى رعشة وداخلنى الفراغ كانت الأضواء بخيلة والصور المعلقة مبهمة فاقتربت من باب غرفة دفعته فانفتح عن جماعة من الأجانب ذوى الوجوه الحمراء والشعور الصفراء يجلسون فى دائرة على الأرض المفروشة بالسجاد يلعبون الورق أصابنى رعب جم ومفاجأة تدعو للشلل ، والتفتوا إلى هذا الطفل المذعور متسائلين بلكنة غريبة ، لمحت ورقة الجوكر فى يد أحدهم ، مفرغة كرسم الشيطان غريبة كرائحة أساطير الحواديت تركت « الجركل » البلاستيكى الأصفر ناسياً وعدوتُ خارج الشقة أقفز السلالم مترنحاً ومخنوقاً قابلتنى أكف لينة دافئة مست صدرى تستمهلنى ، كانت عيون أبى المنقذة .

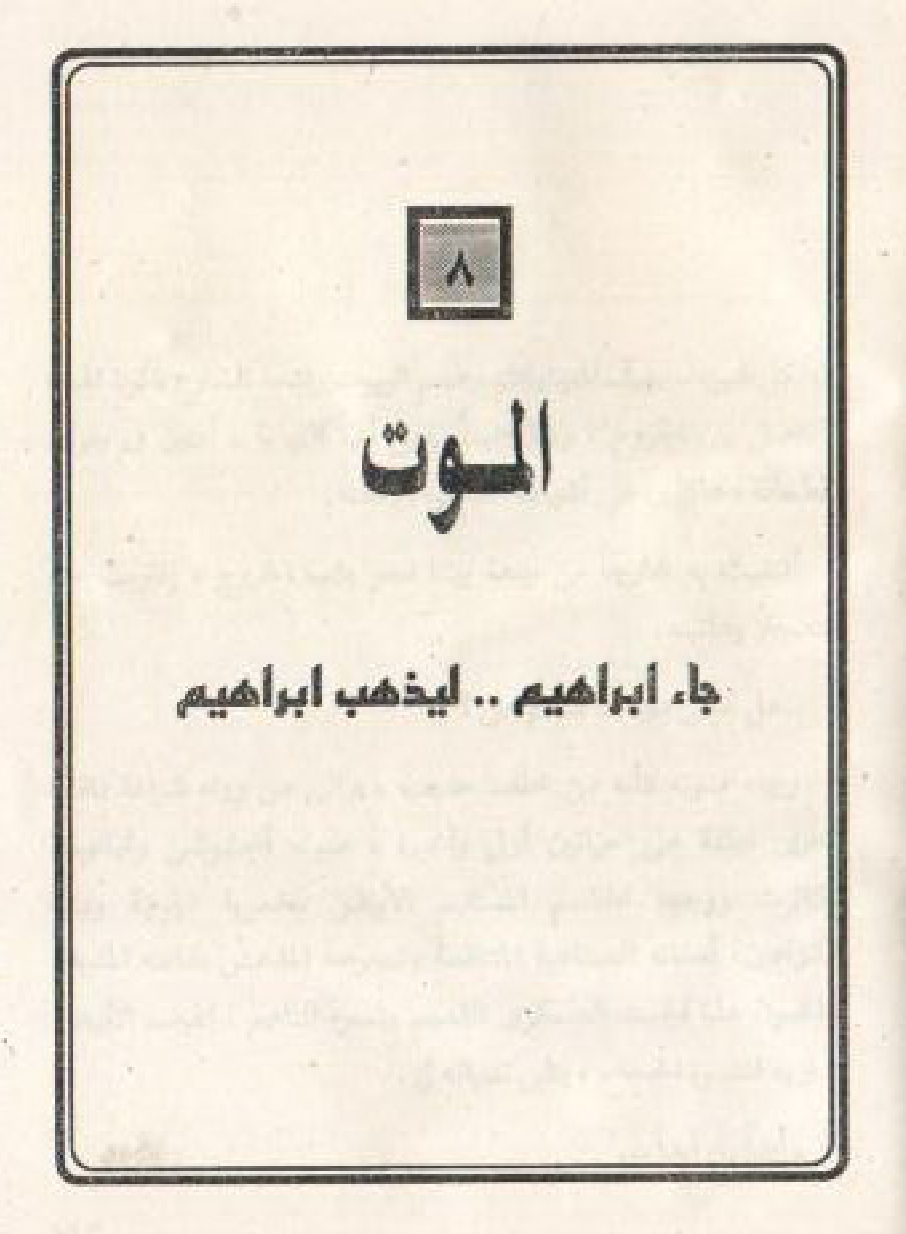
هبط من السيارة .. وسط صيحات العائلة كلها أمام بوابة البيت وفى الشرفة الطويلة عانق أخوالاً واقفين وابن عمتى وأخى الصغير وحين

وصل لى ارتميت فى حضنه .. وكانت المرة الأولى التى استقبل عودة أبى بدموع ساحقة وارتجاج رجل منهار وتشبث بحضنه ،وقد بللت كتفيه وأودعت فى صدره الألم .

ـ مالك يا ابنى .. لا .. هناك شىء .. لا عليك .. لا عليك ..

وكانت العائلة كلها مندهشة ، والسائق الذى دخل إلى البيت ليغتسل سريعاً ليكمل رحلة العودة قد صدمه حشد كبير وبكاء شاب .

ثم مضى كل شىء كما كان منتظراً .



٨

الموت

جاء ابراهيم .. ليذهب ابراهيم

كل شيء ـ مهيأ ـ للنهايات ، طعم البيوت رائحة الشارع ، لون الهواء الفاصل بين الجروح ، وكنا جميعاً نغفل أنها النهاية ، آمنين فى جوف الطمأنة ، عاكفين على أشيائنا المسافرة فى دمنا .

التقيت به خارجاً من ردهة بيتنا نحو باب الخروج ، إقتربت منه متعجلاً وعاتبته .

ـ هل تمشى دون أن تسلم على ؟

وجاء صوته كأنه من خلف حجب ، يرانى من وراء شراعة نافذة أخرى مطلة على حياتين أولى وأخيرة ، صوته أخشوشن وتجاعيده تكاثرت ووجهه الحاسم المستقيم الأبيض بخمرية الجبهة وبنية الدراعين، أسنانه الصناعية المنتظمة وشموخه المدهش بقامته المديدة وغضون هذا الجسد العسكرى القديم وشعره الناعم الخفيف الأبيض تداريه قلنسوة الحجاج ، ينفى نسيانه لى .

ـ أبداً ... أبداً ...

ثم يخطو برجليه بطيئاً ـ هذه المرة ـ وخلفه أبى ـ كالعادة ـ يودعه حتى الباب ،.

ـ مع السلامة يا عم الحاج .

وكنت خلفهما ألقى تحيتى قبل الرجوع .

ـ مع السلامة يا جدى حجاج .

ومع ذلك لم يكن جدى ، وعيت على موت جدىّ لوالدى ، لم يتبق منهما فى ذاكرتى أى شىء فوالد أمى مات قبل أن أولد وجدى لأبى ـ من سميت على أسمه ـ مات بعد ستة أشهر من ولادتى وكان أول ما وضعونى على حجره أدرك ارتحاله ، فقد جاء إبراهيم ليذهب إبراهيم ، ولم يتبق منهما سوى الصور وشارات الحداد والذكريات التى باتت بعد فترة مكرورة محفوظة رغم دفئها وحرارة الحكاية المستولدة من حشا الانتهاء، والملامح ـ فى ذهنى ـ ليست سوى الصور المثبتة تحمل بدورها ذات الخطوط على جبهة أبى ونفس تربيعة وجه أمى وقبعة جدى العسكرية ، الصورة ذاتها يعلقها جدى حجاج لنفسه أيام رفقته فى الجيش لجدى لأمى ، كانا معاً ضباط صف والقبعات العسكرية والحزم البادى والغربة عن البيوت أياماً ثم عودة جدى ذات مرة ـ أخيرة ـ فى سيارة جيب عسكرية مهرولة توقفت أمام الباب الخشبى الصغير وأصاب الشارع فزع خاص ، خرجت على أثره أردية الجنود من السيارة تقرع الباب وتدخل جهمة مقطبة ، وعرفوا كلهم أن جدى مات ،

وانطلقت صرخات مشروخة وولولة ونحيب كاسر والتحام فى الأجساد المتكالبة وسعى نحو معرفة الأقارب فى القرية ووجه أمى بصباه الغامر وشبابه الألق تغطيه الدموع فتحمر خدودها فوق بياض يدفع الحمرة للتألق وأنفها مبلول بالبكاء وعيونها احمرت وأدمت وجسدها خار وصوتها غار ونطقها بطء وتمر أصابعها فى المسافات المزدحمة باحثة عن وجه أبيها المسافر ، وتلفظ كبرياءها العالى منهارة وهى تلثم طرف كتفه العارى المسجى المندى بالغسل وأغرق السواد المكان ، كطيف يظهر ملتمعاً فى إكتحاله ثم يغرس وجوده فى الكائنات كلها ، وصديق مشواره وسفر رحلته المنتظمة ورفيق سلاحه العم حجاج يأخذ بالأيدى ويشد العزم ويتقبل العزاء ويتمم على إجراءات الدفن ويسلم على الصحاب ويحتد على أبناء الفقيد أن يصبحوا رجالاً ويكفوا عن العويل وتخفض أمى رأسها وهى تتذكر مع العم حجاج فى شرفة منزلنا صباح الجمعة قبل الصلاة ، حيث يأتى لنا دائماً كعادة لم تنقطع حتى قبيل وفاته وبعيد سفر أبى ، حضوره المشمس فى صباح الجمعة يضع المقعد فى اتجاه الهواء القادم واضعاً ـ فى الشتاء كوفيه خضراء ـ حول رقبته وقبعة صوفية محكمة التطريز ويمسك بصحيفة الأهرام التى يعطيها إياه أبى بمجرد جلوسه بعد أن ينادينا :

ـ أين الأهرام لجدكم حجاج يا أولاد .

ثم نقدم له كوب الشاى الكبير الساخن ، يركنه على إفريز الشرفة ويمل عيونه بالصحيفة ، ويتساءل حول حقيقة الأخبار والسياسة

ويشكك فى أية تصريحات إقتصادية ويحلق فى الشارع الطويل الذى كان - ولا يزال - يملك نصف بيوته ، فرغ جدى حجاج منذ زمن طويل من الجيش وأعبائه لغنى عائلته قيض له أرضاً ومالاً جعلته عمدة وسيداً فى هذه المنطقة التى نحيا فيها منذ أربعين عاماً فقد أمتلك نصف بيوت الشارع كله حيث كنا نعبر أنا وأمى فى اتجاهنا لمشوار ما ، فتشير لى على بيت صار الآن بناية ضخمة وتقول :

- هذا البيت بيت جدك حجاج ، الأرض أرضه وكان يؤجر لأصحابه المنزل باثنين جنيه ، الآن صاروا أغنياء بعد عودة إبنهم من السعودية ، عرضوا على جدك شراء البيت فاشتروه .

جدى حجاج كان يشعر أن الأرض تنسحب من تحت أقدامه حين كثر المال فى الأيدى واستحوذ الجميع على البيوت بوضع يدهم وتوقفهم أحياناً عن دفع الإيجار ، وفى أحيان أخرى كانوا ينفذون بالبيت ما يرونه دون إستشارته ولما حاول أن يلجأ للقضاء لم ينصفه من تعطل الخطوات وتعثر الملفات وتشابك الشهود ، فأعلن شكه فى القضاء كله ، وصار كلامه خليطاً من لعن الزمن الذى جعل الأنصاف تقوم (يقصد أنصاف الطوب) والقوالب تنام ، وتمر نظراته كسيرة حزينة على بيوته تتجاوز العشرة فى الشارع فإذا بها كلها لم تعد ملكه عملياً ويسأل ساعتها عن رحيل أولاده ، أبناء جدى حجاج كثيرون ويسرى فيهم الخبر ، فقد ارتحل معظمهم إلى دول عربية واستقروا سنيناً طويلة جسرهم الوحيد كان الصور والخطابات وأجازات آخر العام وزيارة أطفالهم إليه بعد

الإمتحانات وكان كثير الكلام عنهم مذكراً بتفاصيلهم ، مجيباً على أسئلة أمى عن أحوالهم ، فهم أصدقاءه حتى القرابة ، مختلطين بدمنا جميعاً ، الكبار مع الكبار والأجيال التالية كلها تشربت المودة والحب والسفر .

امتص السفر رحيق كل شىء وأخذ من دمنا أكياساً من التبسط والراحة وأغفل اعادتها لكن بقى جدى حجاج حاكياً عن أبنائه المسافرين وعن أبنائه المتزوجين وعن أحوالهم وكانت البيوت الطينية الأخرى التى امتلكها تسقط تحت أثر الزمن ، فدفعه رخاء الحال إلى دعوة الأولاد للبناء فبروا جميعاً وبنوا وعادت عمارات جدى حجاج إلى الوجود الضاحك الثرى ، وأسكن الأولاد كلهم طوابق فى العمارات الحديثة ، لكنهم بذلوا جهداً خرافياً كى يخرج من بيت العائلة القديم ، هذا المنزل الواسع الرحب ينتهى « بطلمبه » ماء غريبة حولها أسوار حجرية تقودنا إلى حديقة خضرة طازجة وسلالم مؤدية إلى سطح وخفوت وعتمة ملقاة على الحجرات والردهات ولاشىء يبين سوى أطراف الأثاث وأطر الصور الفوتوغرافية (صورة جدى فى لباسه العسكرى واللون باهت سحيق) الطريق سالكة للإكتئاب وأنا أعدو فى الصالة نحوه قادماً من الحديقة أخبره عن حاجة لمال عاجل حتى يعود أبى من العمل أو لإستكمال مبلغ كبير مطلوب ، وعمره ما قال لا أبداً جدى حجاج ، المنقذ من أية أزمة ترى لنفسها أن تلوح أمامنا ، كان أول شىء ينهض برأسه أمام الأزمة هى ذات الجملة - روح لجدك حجاج بسرعة .

والطريق إليه عبوراً فى هرولة لدقائق لا تعد ولا تحسب ثم الدخول إلى

عتبة الباب والعتمة الخافتة النابعة من الداخل وظهور زوجته المسنة التى
أهتف لها « تيتة » تشير لى على مكانه فى مدخل الحديقة أصافحه بكفى
الصغيرة وأصل إليه برسالتى خافتة دون أى خجل .

يتركنى ويلج إلى غرفة معتمة أيضاً ، بعض الأضواء الناحلة منقطعة
المصدر تترك بصماتها على الأبواب ثم يخرج بورقه النقدى ويدسه فى يدى
فأعدو إلى أمى ، حتى عندما نجح أولاده فى إقناعه بترك البيت القديم ،
حيث تمنع ورفض وشاركته زوجته حوارات طويلة وصخب كيف لهما أن
يخرجا بعد عمر طويل جداً من البيت كيف لأكفهم وطيات جذوعهم
وآثار أقدامهم أن تتعلم حباً جديداً وتتعود إحساساً طازجاً وأعد الأبناء
الطابق الأول فى عمارة قريبة للبيت القديم وجهزوه ثم انتظروا الإقتناع
وبعد لأى وزمن ، جاء جدى إلى شرفة صباح الجمعة وتناول الشاى
الساخن وحرك قدمه يميناً فى جلسته المستريحة وابتسم فى ضحكة
منتظمة فيها روح المهمة وطوى الصحيفة ثم اشتكى من غم عائلى ،
يقابل بإبتسامة وضحكة أبى كيف لهذه العشرة الطويلة أن تُعكر
بمشاجرة بعد كل هؤلاء الأبناء وهذه الأعمار ؟ لكن غضبهما ـ ساعات ـ
كان يمتد إلى الهجر وتجنب الحديث والمفارقة فى الطعام ، أباح جدى
أخيراً فيما يشبه خجل التراجع أنه انتقل إلى البيت الجديد وحتى فى
البيت الجديد كانت ذات العتمة الخفيفة والروائح القديمة البائتة وهو
يدخل من رصيف الشارع حيث يجلس دائماً (ولابد) على مقعد خشبى
بمنشته على حجره ورجلاً فوق رجل تحت جلبابه الأبيض وتمعنه فى

الوجوه وتأمل فى الحياة ورد تحيات وتلويح بكف فى جلسة إشتهر بها
وأحببتها جداً حين كنت أمر عليه وألقى التحية فيرد طبيعياً حتى يستفيق
إلى أنه أنا فيلهج بالتحية ويؤكد عليها ويبث فيها حرارته .

نفس الحرارة التى كنت أراه فيها داخلاً إلى ردهة منزلنا فى دعوتنا له
على الإفطار فى رمضان كعادتنا كل عام حتى سافر أبى وغاب عن
رمضاناتنا ، فانسحبت الدعوات وجلة ، رحباً وصافياً عميقاً فى قدومه
نحو المائدة ، وجلوسه فى مكان الصدارة ، مداعبة أبى له وإمعانه فى
الحب وأمى تسأله عن مشروب يفضله بين مشروبين وأختى تطلب منه
رأيه فى طعام طهته بنفسها وأمى تضع قطع اللحم والفراخ والحمام كلها
فى طبقه فيفزع من كثرة منابه ، فيلح أبى على أن يأكله كله فيطلب ألا
يأكل إذن سوى اللحم ، فنضحك وقيامه عن المائدة وهو شاكر مادح
للطعام وأهله ـ هذا خير قوى ، حلو قوى ، حاجة عظيمة خالص .

وكان دائماً يعلن على الملأ أنه لا يفضل سوى طعام أمى ولايحب
سوى أكلها وكانت بمثابة إبنته الكبرى شقيقة إبنه الكبير الذى حين
يزورنا مع عائلته الجميلة يتبادل مع أبى وأمى ذكريات قديمة ثم يخص
أمى (أخته) بالذكريات البعيدة وسط ضحك وإستغراق وتحركات
الأطفال وصبية يعدون أمامهم كأنه قفز الزمن وسعى الأيام اللاهث
واللاهثة ، يوم دخل علينا جدى حجاج ونحن نجيب على هاتف أبى
من غربته كانت فرحة مزدهرة مزغردة فينا جميعاً ، حيث تناول الهاتف
وتحدث فيما فاض علينا دموعاً ، كانت الكلمات قليلة ونواسة لاهثة

ومعبرة متكررة وعذبة وكان سؤاله دوماً عن حال أبى وما فعل وما حصل ولقاؤه الخاص به حين عودته حفاوة الأكتاف بالأكتاف والعناق الدافىء الممتلىء والضرب الوديع على الظهرين ، غياب وجه أبى فى عنقه ودخولهما إلى الحديقة يرعيان أخبارهما وحكاياتهما النبيلة ، جدى شاهد على غربتى أبى عشر أعوام وأكثر مرت منذ غربته الأولى وحين سافر أبى مرة أخرى كان يخشى فى كل مرة أن يرجع فإذا بجدى حجاج قد انسحب من الوجود وكانت أمى حين يشتد مرض على جدى ، تضع كفها على قلبها مخافة أن تحدث كارثة الوفاة وأبى بعيد ، لا أحد يعرف ماذا سيحل به لو جاء الخبر فى هاتف أو خطاب لكن إخلاصهما للصداقة والبنوة المدهشة جعلت وفاته أثناء وجود أبى بل وفى الأيام التى عاد فيها كل أبنائه من الخارج وحين اكتملت الأسرة كلها .. مات .

كان مندهشاً مستغرباً من هذه الحقيبة التى أحضرتها أختى أول دراستها بالطب وضعتها تحت السرير ثم كانت قصة فادحة فى البيت كله انتثرت أطرافها ورذاذها فى مواقع العائلة ، أختى جلبت رجلاً إلى البيت ، رجلاً ميتاً عظام الرميم لشئون دراستها لا حول ولا قوة إلا بالله ، خاف البعض وضحك البعض ، لكن جدى حجاج ـ لمحا وخطفا ـ كان غاضباً ، الإحساس بأن النهاية يجوز أن تُلقى فى كيس بلاستيك كبير داخل علبة كرتونية أمر مفزع وبناء جسر من التواصل مع هذا الميت على إعتبار أن له أهلاً وعائلة وبشراً يسألون عنه ويقرأون لدى قبره الفاتحة ، جعله يغضب ويشيح بوجهه لحظة تذكارنا لهذه القصة وربما شاركه أبى

نفس المشاعر فقد قرأ للعظام الفاتحة وآثر ألا يراها ورنت فى عيونه نظرات أسى وفقد وشعور بوهن النفس وهوان الدنيا .

وتلك ذات النظرات التى تضخمت وملأت وجود الهواء لما رأيت جدى حجاج للمرة الأخيرة ، هذا الشحوب الرهيف ، الإنسحاب الآمن، السكون المتفجر ، النظرة المتأملة الشاردة ، الغربة عن المكان ، توهة العقل وذهاب الذهن إلى مخلوقات أخرى وهذا البطء فى المسير المتمهل فى الأنفاس ، الإرتجاف فى الرموش ، الإهتزاز الدقيق فى الأصابع حول الكوب ، الغرق فى الصمت وضع الكف على الفخذ والحكى من أشياء مضفت حكايا ولما جلس مع أمى تنقى الأرز فى مربع تحت شمس الجنينة ألقى الصحيفة جانباً (أو ربما لم تكن موجودة) وتوجعت أوراق الشجر أمامه واندلقت زهور الليمون على الأرض الطينية وإندهست تحت الأقدام قال لأمى ، حكى لها كيف يشعر بهذا الألم العاصر لأمعائه كيف تسير مناشير ذات أسنة حادة قاسية وتقطع أمعاءه تهرس رجولته وتدغدغ بطنه ويصبح ألماً لا يطاق يفجر جسده الكبير .

ـ خلاص عجزنا وراح العمر والعافية .

ـ لا تقل هذا يا عم حجاج ربنا سيسعدها بإذن الله وسترجع لصحتك إلهى يا كريم .

وترفع يدها إلى السماء فيرفع نظراته مع حركة يدها لكنه يثبت عند عينها ويستند بمرفقه على مقدمة فخذه ويقول لها :

- عارفه من أين جئت الآن ؟

فى لهفة

- خير يا عم الحاج .

يهز رأسه فى تردد وحزن مفترس .

- من المقابر .

تضرب أمى صدرها .

- خيـر .

كان الوقت يداعب الصباح لعله يبين كاملاً ، وأضواء النهار محبوسة وروائح المقابر المغسولة بالفناء وهذا الصفار العجيب الذى يحتشد فى كل الأسوار والأبنية ، اقترب جدى حجاج من التُربى وسارا معاً فى خطوات وئيدة متوجعة حتى باب المقبرة التى بناها للعائلة منذ عشرين عاماً ، طلب منه أن يفتح بوابتها الحديدية الصغيرة ثم يزيح الطوب عنها والأتربة (مقهورة بندى الصبح) والرجل يعمل فى حماس وهمة المجاملة يبعده جدى عن باب المقبرة ، ثم يدلف إليها وحده ، المكان معتم وقاتم والهواء شحيح وثقيل والزوايا بعيدة والسقف قصير القامة واطىء حتى الإنحناء ، كان التُربى قد لحق به فأمره فى لهجة حازمة أن يفرش الثرى الأصفر الناعم على مكان نوم الجثمان ، إنحنى الرجل وأخذ يضرب بكفه وأصابعه الغليظة على التراب حتى سواه وجعله وسادة منسابة ، ألح عليه

جدى أن يخرج ثم تجول بنظراته فى أرجاء المقبرة مد أصابعه وخلع حذاءه وضعه إلى زاوية هناك ، ثم عاد فاقترب من الثرى المفروش نزل بركبتيه ثم استند بكفيه ثم فرد قامته نائماً على الثرى موجهاً رأسه للقبلة بعدما إرتبك بحثاً عن إستقرار لتوجهه وضع ذراعيه جانبه ونظر فى السقف وتنفس فى هدوء وانتظام واطمئن على أنه هكذا سينام حين موته، عندما حاول النهوض كان جسده مخدراً وقلبه مكتئباً وصدره مزدحماً بالحزن وعيونه غائمة تماماً عن الرؤية وأصابعه مرتجفة وكتفاه متدليين وهذا الجبروت العظيم والحنان الفيضانى قد رق ونحل واخترقه نصل المرض يمخر بطنه ، هبط إليه فجأة التربى وأمسك بيده فاستند على كتفه وصعد من المقبرة حيث شم هواء مفتوحاً والشمس كانت قد بانت وتوجه ينفض عنه التراب خارج المقابر وصورة المقبرة ، النومة والرقدة وارتجاف القلب صورة وحيدة تحتل عيونه .

ها هو الموت ، أخيراً يخرج من كتبى والقصص المؤلفة والأحزان المزيلة ويقفز من حلق السماء إلى رأسى ، مواجهتى الأولى معه ، لم ينزع أحداً من شرفة منزلنا أبداً ، كل ما جرى سبقا ، كان محض التهابات فى القلب الصغير سرعان ما يمضى فوقها مرهم للحريق والتسلخات فتنتهى، لكن - الآن - يأتينى حتى شرفة المنزل ، أخذ جدى حجاج ثم جلس مكانه على المقعد الخشبى وألقى بجريدة الأهرام وتمطى وضحك وضرب ظهرى بكفه .

- ها يا حلو ماذا ستفعل ؟ لماذا لم تبك يا نذل ؟

ثم يمسك كوب الشاى ويمضمض زجاجة ـ كم صوروا الموت وديعاً وآمناً مثلنا لكنه ليس كذلك ـ أليس كذلك !

خطفوا آخر ما تبقى من فرح مقاوم داخل صدرى لم تعد إلا حزانى من السفر أو الموت أو الإنكسار العاطفى فى ميدان التحرير ، تركنا جدى حجاج الأثر الوحيد الباقى على أن هناك شيئاً يمكن أن يبقى ، مات والغريب أننى تلقيت هاتفاً يقول خالى فيه .. تماسك .. جدك حجاج تعيش أنت ، لم تهتز السماعة فى يدى ولم أبك ولم ترتجف عيونى ولم أصمت ولم أتوقف عن الكلام والمناقشات فى المجلة ، ولم أقل لأحد أن جدى حجاج مات هل يعرفونه ؟

هل سيقدرون ؟ هل يفهمون ؟ ولكن زلزالا مريعاً كان يطيح بكل شىء ، كل شىء ، كان يحطم الجدران والحوائط والمقاعد والمكاتب والرياح والشوارع والنباتات والوجوه وكان كل شىء ساقلاً وابن كلب لأنه يحيا بعد جدى حجاج ، وكرهت الدنيا كما لم أكرهها من قبل ، هذه السهولة التى يفر بها جدى من الحياة ، هذه البساطة فى الكلمات ، مات، هذا الهدوء الظاهرى الذى أصافح به الأصدقاء ، كيف نحيا بعد أن يموت الآخرون كيف نستمر بينما توقفوا سكتوا انتهوا ، ولهث فؤادى وانكببت على جروحى المفتوحة تتفسخ ويلقى فيها الحامض الكاوى وسيارة أجرة تنقلنى إلى مدينتى ، وأدخل البيت وأسلم وأتلقى حضور أمى بجلبابها الأسود وعيونها الباكية من عند بيت جدى حجاج ، وأبى مكث طويلاً يجفف دموعه وأخواتى انهرن وأخوالى جاء أحدهم من

مدينة مايو بمجرد معرفته بالخبر وكان أول الهابطين من السيارة المصاحبة للجثمان ، وتوافدوا كلهم من بيوتهم ومشاغلهم والتفوا مع أبناء جدى حجاج الذين وفدوا إلى الحزن كافة ، تماسك أحدهم يبدو بطولياً وهو يسبق حضور الجثمان من القاهرة حيث المستشفى الذى مضى بها يومين قبل وفاته ، تأكيده على إحضار اللحوم والطعام للعشرات القادمين ، وإتمام شراء الخبز والإتفاق مع محل الفراشة والإطمئنان على قدوم أهم المقرئين فى المحافظة ، انتصاب السرادق للعزاء ضخماً وواسعاً على الشارع كله والأضواء الباهرة تغمره وتفضح هذا القماش الأحمر القانى المنقوش بالبنى الفاتح والأخضر المستور الذى تتكون منه كل السرادقات فيما يشبه القانون ، فناجين القهوة ومقاعد الخشب ذات الأقراص الخضراء المبطنة واسم المحل منقوشاً على ظهرها ، نفس فراشة الأفراح ، ذات المقاعد ! المئات يتوافدون على السرادق للعزاء ، الأشقاء جميعاً يقفون فى المقدمة يصافحون منكسى الرؤوس محدقى العيون ، وأبى فى إمتقاع الهزائم ، أخوالى فى لحظات إثبات الرجولة والقرآن فى صوت عال يملأ الشوارع كلها ، يعلن أنها آيات رحيل جدى حجاج .

البيت ـ نفس الشقة التى رفض أن يأتى لها قبلاً ـ أضيئت بأنوار باهته وافترشت بمقاعد خشبية وفى حجرة داخلية كان الباب موصداً على نساء باكيات بالسواد وكنا نجلس على المقاعد فى الصالة بينما المقرئون الستة الذين يتناوبون تلاوة أجزاء القرآن يجلسون فى استرخاء على الأرض فى انتظار طعام العشاء فى لحظات المغيب ، وحين افترشت

أمامهم الأطعمة واللحوم خرجوا بعد دقائق نحو الحوض لغسل الأكف يقود أحدهم شيخاً كفيفاً وابتسامات خفيفة على الشفاه ، آفة التعود تحوم على أحداقهم وفوق جباهم والجالسون قد انتهوا فى ذكرى خميس جدى حجاج ، من الحزن الفاضح وتحلق الشيوخ يدخنون السجائر وقد أغرق حريق الدخان أصابع الشيخ الكفيف فاهتزت يده ، وتحركت نحو المطفأة وسقط الدخان فى المسافة نحوها .

وكان آخر يسحب من حنجرته صوت التلاوة وكنت بجوار أبى ، الذى يهز رأسه مفكراً فى الآيات ثم يميل على ويسألنى مختبراً حفاظى على قدرتى فى القواعد النحوية .

ـ هل تعرف إعراب هذه الكلمة ؟

فأبتسم وأعربها ، فيهز رأسه فى إعتزاز ثم يسلم نفسه للقرآن وتلاوته .

ووجوه أبناء جدى تتبادل أحاديثاً حول تفاصيل كثيرة وحين جاء الليل الكئيب ونامت العائلة كلها إلاى وأخت تتابع مذاكرة ما ، دق جرس الباب هرعنا نحوه كان إبن جدى حجاج الأكبر وأسرته الصغيرة قد جاءوا لتوديعنا قبل عودتهم إلى القاهرة ودخلوا جميعاً مرتدين سواد الحداد وكان أبى قد استيقظ وأمى من النوم وأسرعا إلى الصالة حيث جلسوا على الأرائك صامتين ثم متكلمين عن الجد والجلال الرهيب بيننا .

وحين مضوا دخلنا جميعاً إلى فراشنا وحين تقلبت على السرير وحدى

أدركت ـ وحدى ـ كم أنها غريبة الحياة .. وتمنيت أن أموت الآن .. مالى لا أموت الآن .. وظهر أخوالى وأبناؤهم جميعاً يملأون الغرفة وحضرت أمى مع أبى إلى السرير وتشارك أخواتى وأخى الصغير فى المساحات الفارغة وانفتح الباب عن الصالة المعبأة بالوجوه القادمة من القاهرة (قاهرتى) .

ثم انتشرت فى البيت كله طيور بيضاء وخضراء عصفت بأجنحتها وأصواتها المختلطة ثم انكشف السقف عن السماء ثم تحللت الجدران عن الحوائط وأسفرت عن وجودنا فى صحراء صفراء شاسعة ثم غنى صوت عميق بعيد فأخفت الريح صوته لكنه جاء نحيلاً حتى أذنى وسمعتها تهز رأسها بالغناء لكن لم أستبن معالم الأغنية فقد صحوت على وجهها الجميل فى وجدانى ثم ظهر صوت أختى جلياً قادماً من الصالة وقد وضعت الإفطار على المائدة تقول لأمى :

ـ بالتأكيد سيكتب قصة عن جدى حجاج .

ثم دخلت علىّ الغرفة وتنادى كأنها تعرف يقظتى

ـ أيوه يا خوى ما كل حاجة بتكتبها عندك فى روايات .

انتهت

ابراهيم ـ ٢٧ مايو ١٩٩١ ـ قويسنا ـ القاهرة

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٧٦٩٣ / ١٩٩٧

I.S.B.N 977 - 01 - 5259 - 5

■ إبراهيم عيسى

- مواليد ١٩٦٥.

- خريج إعلام قسم صحافة.

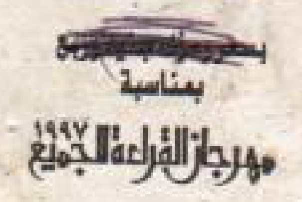
- صدر له من روايات وقصص «الحبيبة»، «العراة»، «مريم التجلى الأخير»، «صار بعيداً»، «صباح النهايات»، «وجه بعيد لامرأة بعيدة»، «دم الحسين».

- له عدة مؤلفات وكتب سياسية فكرية، يدور محورها حول التطرف الدينى فى مصر الجذور والأسباب.

- يشغل حالياً منصب رئيس تحرير جريدة الدستور الأسبوعية.

مكتبة الأسرة





مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب